كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

الحواضر العربية وشاعرية المكان
" بغداد نموذجاً "

إعداد

د / ياسر السيد عبد العال البنَّا

مدرس الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

(العدد الثاني والثلاثون – الجزء الثاني ٢٠١٣م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمكنت الحركة الشعرية الحديثة من شق طريقها للتعبير عن قضايا الأمة وارتاد الشعر العربى آفاقًا وأفكارًا جديدة كان فى مقدمتها فكرة القومية العربية التى ألحَّت على الظهور بعد أن حمل لنا النصف الثانى من القرن العشرين مجموعة من التحولات القومية والوطنية التى توالت بعد الانكسارات التى تعرض لها العرب على يد شرذمة من العصابات الصهيونية وبعض الكيانات الاستعمارية .

وقد شكل المكان دوراً هاماً وحاسماً – منذ القدم – في تكوين حياة البشر وترسيخ كيانهم وتثبيت هويتهم وتشكيل طبائعهم، وتحديد تصرفاتهم وتوجهاتهم وإدراكهم للأشياء ، ولا يعد هذا غريبا على " المكان" الأشد التصاقا بحياة الإنسان والأكثر احتواءً لكيانه .

والمكان في الشعر قد يشكله الخيال ، ويبنيه في اللغة على النحو الذي يشكله الواقع الفعلي ، فليس المكان فقط أبعاداً هندسية وأشكالاً حسية خارجية ، إنما هو أيضاً صورة جمالية تبدعها الذات وتضفي عليها من ذاكرتها الحضارية أبعاداً معنوية [١] ، والحواضر العربية هي إحدى تجليات رؤية الشاعر للمكان بجميع أبعاده الحسية والمعنوية .

وفى العصر الحديث شغلت الحواضر العربية حيِّزاً واسعاً بين موضوعات القصيدة العربية وترددت أسماء المدن العربية فى الشعر حتى شكَّلَ ذلك ظاهرة

(١) ينظر : مقال بعنوان : " الغربة المكانية فى الشعر العربى " – عبده بدوى – مجلة " عالم الفكر " عدد ١ – ص ١٥ – ط الكويت ١٩٨٤ م .

جديدة فى الشعر الحديث ، ولاشك أن مرَدّ ذلك إلى رقىّ الوعى القومى والحس الوطنى لدى الشعراء ، ومن ثمَّ برزت الحاجة الماسة لدراسة هذه الظاهرة الجديدة حتى تتناول جانبًا من الشعر العربى عامرًا بالمعانى والأفكار .

ولعل حاضرة " بغداد " – عاصمة الخلافة العباسية وكبرى المدن الشرقية – كانت أكثر الحواضر العربية من حيث انشغال الشعراء بها ، يعدونها خلاصة التجربة الحضارية العربية التي انعكست على الوعي الفني ، وكشفت عمق الرؤية الشعرية للحواضر العربية ولاشك أن ذلك كان دافعاً لاختيارها نموذجاً لدراسة الحواضر العربية في الحركة الشعرية .

ذلك أن من يتتبع مدينة بغداد في الشعر الحديث يجدها قد غدت لفظا شعرياً وإيحاءً لمعاني الشوق والحنين ، والوصف والجمال ، والحضارة والتاريخ والثقافة والآداب ، والبطولة والفداء ، وكذلك معاني الحزن والرثاء ، وكان من الطبعي أن تكون هذه المعاني هي موضوعات المباحث الستة لهذه الدراسة ، بخلاف الدراسة الفنية .

وتأسيساً على ذلك كله أقدم هذه الدراسة عن " بغداد " في الحركة الشعرية مسايرة لحركة النقد الأدبي المعاصر التي تقف من ظاهرة الحواضر العربية والمكان في الشعر موقفاً دارساً ومعالجاً ، وأرجو أن تكون مساهمة جادة في توجيه الوعي الثقافي للشاعر العربي .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١)

الباحث

(١) سورة هود : من الآية ٨٨ .

تمهيد

غير خفي أن صورة الحواضر العربية في الشعر ليست جديدة على تاريخ الشعر العربي القديم ، فقد ارتبط الشعراء القدامى بالمكان ، وانتشرت لديهم ظاهرة الوقوف على الطلل وأشعار الحنين إلى الدار والأهل ، مثلما عرفوا المدن وألفوها ، وعاشوا حياتها خيراً وشراً ، فكتبوا فيها وعنها ، مدحاً وهجاءً ، وصوَّروا حالات الغربة والبعد عنها ، والشوق والتطلع إليها ، مثلما بكوها ورثوها عند حدوث الفتن والحروب.

وقد كان عصر صدر الإسلام الحقبة الأشد التصاقا بوجدان الأمة والأقدر على تفجير طاقات الإبداع لدى الشعراء ، وكان لهذه الفترة من القيم الروحية الشفافة الزاخرة بالإشعاعات ما يجعل منها منبعاً غنياً للمبدعين إذ ضمت تلك الفترة رجالاً ضربوا المثل الأعلى في التضحية ونكران الذات ، وصار ذكرهم يثير في النفوس معاني الشموخ والصمود والنضال ، ولا شك أن الإسلام بهذه المعاني المتحضرة جاء ديناً مدنياً ، عمَّق وطور علاقة العربي بالمكان التاريخي ، والحواضر التي كانت تعادل ، وتمثل مراكز العلم والعمران .

وقد ظهرت ملامح هذه الفكرة أثر نشأة الحواضر العربية الكبرى في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، بعدما شيدت الدولة الأموية القصور الضخمة مع نمو الحركة التجارية والسياسية لدمشق عاصمة دولة الخلافة العربية الأولى ثم اتسعت رقعة المدن العربية في العصر العباسي نتيجة للنمو المتزايد والتوسع الكبير في الحركات التجارية والاقتصادية والسياسية [١] .

وقد سجل ديوان الشعر العربي العديد من قصائد الشعراء التي تدور حول

(١) ينظر : مقال بعنوان : " الغربة المكانية في الشعر العربي " – عبده بدوي ص ١٦ .

وصف هذه الحواضر وقصورها وحدائقها ، وحنين الشعراء إليها، وربما أيضا هجاءهم لها ونقمتهم عليها .

فهذا الوزير " أبو الحسن بن محمد المهلَّبي" [١] يحن إلى بغداد قائلاً :

أَحِـــنُّ إلـــى بَغْـــدادَ شَـــوْقًا وإنَّـــمَا

أحِـنُّ إلـى إلْـفٍ بِهَـا لـي شائِـق

مقـــيمٌ بـــأرضٍ غبـــتُ عنهـــا وبِدْعَـــةٍ

إقَامَـــة مَعْشُـــوقٍ ورِحْلَـــةُ عاشِـــق [٢]

وهذا " البحتري " يعجب بمحاسن دمشق فيصور جمالها الطبعي لوحة تملأ الدنيا يقول [٣] :

أمـا دِمَشْـقُ فَقَـدْ أَبْـدَتْ مَحـاسِنَها وقـد وفـى لـكَ مطربهـا بِـمَا وَعَـدَا

إذا أَرَدْتَ مَـلأْتَ العـيْن مِـنْ بَـلَدٍ مستحسـنٍ وزمـانٍ يُشـبه البَـلَدَا

---

(١) الوزير المهلَّبى : (٢٩١ – ٣٥٢ هـ / ٩٠٣ – ٩٦٣ م) : الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون ، من ولد المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، أبو محمد : من كبار الوزراء ، الأدباء الشعراء . وكان من رجال العالم حزمًا ودهاءاً وكرماً وشهامة . وله شعر رقيق ، مع فصاحة بالفارسية وعلم برسوم الوزارة . ولد بالبصرة ، وتوفى فى طريق واسط ، وحمل إلى بغداد . [الأعلام ٢ / ٢١٣] .

(٢) ينظر أدب الغرباء – أبو الفرج الأصفهاني – تحقيق : صلاح الدين منجد ص٣٤ – طبعة دار الكتاب الجديد – بيروت – بدون تاريخ .

(٣) ديوان البحترى – شرح وتحقيق وتعليق : حسن كامل الصيرفى ٢ / ٨٧ – ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٣ م ، والأبيات من بحر البسيط .

يُمْسي السحابُ على أجبَالها فِرَقاً ويصبحُ النبت في صَحْرَائِها بَدَدَا

ونرى ذلك أيضاً في تحية " أبي بكر أحمد بن محمد العيدي " [١] لمدينة عدن ،يقول [٢] :

حيَّاك يا عَدَنُ الحَيَا حيّاك

وجَرَى رُضاب لَمَاهُ فوقَ لَماكِ [٣]

أصْبُو إلى أَنْفَاسِ طِيبِك كُلَّمَا

أَسْرَي بنفْحَتِهَا نَسِيمُ صِبَاكِ

وتقرُّ عيْنِي أنْ أراكِ أنيقةً

لا رَمْلَ عرجَاء وَدَوْحَ أراك

---

(١) أبو بكر العَيْدى : (... – نحو ٥٨٠ هـ / ... – نحو ١١٨٥ م) : أحمد بن محمد أبو بكر العيدى : وزير الدولة الزريعية فى عدن ، وصاحب ديوان الإنشاء بها . يلقب بالأديب . وله شعر جيد . وفى سيرته طرائف ، وفى اسمه ونسبته اضطراب . ولد ونشأ فى " أبين " قرب عدن . وعمى أبو بكر فى آخر عمره ولم تنقص منزلته عند الزريعيين إلى أن مات بِعَدَن . [الأعلام ١ / ٢١٦] .

(٢) معجم البلدان – ياقوت الحموى ١ / ٤٢٧ – طبعة مطبعة السعادة بمصر – الأولى دون تاريخ ، والأبيات من بحر الكامل .

(٣) الحيا : مقصور المطر لإحيائه الأرض وقيل الخصب وما تحيا به الأرض والناس ، وقال اللحيانى حياهم الله بحيا مقصور أى أغاثهم .[لسان العرب ١٤ / ٢١١]، رضاب : من رَضَب يرضُب رضبًا ، والرُضاب الريق المرشوف . [لسان العرب ١ / ٤١٨] لَمَاه ، لُمَى: اللمى مقصور سمرة الشفتين . [لسان العرب ١٥ / ٢٥٧] .

وعلى ذلك يمكن القول بأنه لم تتبين معالم الحواضر العربية في تراثنا الشعري على نحو واضح إلا في العصر العباسي ، وذلك عند اكتمال النموذج الحضاري العربي والإسلامي الذي تجلت ملامحه الراقية في بروز هذه الحواضر الزاهرة مثل بغداد ودمشق وعدن وغيرها من المدن والممالك العربية والأندلسية.

وقد كانت هذه الحواضر الشرقية خلاصة مجتمع جديد يتفتح على عوالم جديدة وغريبة على الذوق الصحراوي ،

أما العصر الحديث فقد شهد الازدهار الحقيقي للحواضر العربية –وربما المكان بعامة – في الحركة الشعرية ، وليس ذلك فقط لخبرة الشعراء الحضارية ومعيشتهم في المدن ، وإنما أيضاً لتوفر عوامل أخرى أهمها : إفادة التجربة العربية من الشعر الغربي الحديث في تجربة تصويره الحواضر المعاصرة ،وكذلك أيضاً الكفاءة الفنية الراقية التي تحيل تجربة العيش في المكان أو الانفعال بالأحداث التي تجري فيه إلى نص إبداعي ، وكأن أبعاده الهندسية والمادية قد تحولت لدى الشعراء إلى طاقة استعارية ورمزية عند كل منهم باختلاف تجربته وطريقته الشعرية ، وكذلك درجة وعيه بهذا المكان [1] ، وبخاصة حين يكون هذا المكان هو حاضرة " بغداد " زهرة المدائن والعاصمة الأولى للخلافة الإسلامية بما لها من إشعاع حضاري ومكانة كبيرة في قلوب العرب والمسلمين .

(١) ينظر : تجربة المدينة في الشعر العربي المعاصر – د / عبد السلام الشاذلى ص ١٩ وما بعدها .

المبحث الأول

بغداد .. البطولة والفداء

يجدر القول إن بغداد قد مرت بعهود وتجارب قاسية جعلتها دائماً في حالة نضال مستمر ، فكما نعلم أن بغداد أدَّت واجبها تماماً زمان شاءت لها الأقدار السعيدة أن تسيطر على الدنيا ، ونعلم أيضاً أنها لم تشهد غفوة الراحة والدعة وكأنها تهوى أن تعيش في نضال يعقبه نضال .

فبعد أن كانت بغداد زهرة المدائن وعاصمة القطر العراقي والعاصمة الأولى للخلافة الإسلامية أكثر من خمسة قرون امتد فيها سلطانها وإشعاعها الحضاري من الشرق الأقصى (أسوار الصين) حتى المغرب الأقصى ، وكانت قلعة حصينة للشرق ، ومفخرة للعلوم ، ومن قبل ذلك ملحمة للبطولات ، وجدنا أن الماضي قد تناءى وبالغ في التنائي ، وانطفأت أنوار المدينة ومعها الأمة العربية بسبب الاستعمار البغيض ونضاله المرير .

وقد أسهم الشعر في نضال بغداد بنصيب موفور حيث راح الشعراء يستنهضون هممها ويستحثون خطاها في محاولة النهوض والحرية والكرامة .

ولا شك أن كان لهذا النضال أثر كبير في الإبقاء على الهوية العربية لبغداد ، يقول الدكتور زكي مبارك [1] – وقد زارها – : " كنت أتصور بغداد مدينة أثر فيها

---

(١) زكى مبارك : أديب من كبار الكتاب المعاصرين ، امتاز بأسلوب خاص فى كثير مما كتب ، وله شعر يمتاز بالجودة والتجويد ، ولد فى المنوفية عام ١٨٩١ م ، وأحرز لقب " دكاترة " لحصوله على أكثر من "دكتوراه " فى الآداب ، واطلع على الأدب الفرنسى ، وتوفى بصدمة من عربة خيل عام ١٩٥٢ م . [معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢ م ، كامل سليمان الجبورى ٢ / ٢٧٧] .

الاحتلال . احتلال الترك أو الانجليز ، فوجدتها مدينة عربية في كل شيء ولا تغلب فيها لغة الأتراك ولا لغة الانجليز ، فالعراق من هذه الناحية يشبه مصر فهو يبتلع كل شيء ، ولا يؤثر فيه شيء ، ولعل لماضيه أثراً في ذلك ... " [١]

ولأن بغداد في قلوب العرب والمسلمين وفي أنفسهم من الحواضر العربية التي يغارون عليها ويجاهدون في سبيلها حتى تبلغ ما هي له أهل من الحضارة والعمران ، وحمل مصابيح الثقافة والعلم ؛ كان لبطولة بغداد – بدافع القومية العربية – نصيب كبير في حركة الشعر المصري .

ومن أكثر الشعراء المصريين تأييداً لنضال المدينة الجريحة الشاعر " محمد التهامي " ، فقد ضمَّت أعماله الشعرية عدة قصائد بعنوان " بغداد " يتتبع فيها تاريخ نضال المدينة عبر السنين ، وفي إحداها يقول [٢] :

بَغْـــدَادُ يـــا كُـــلّ العُروبـــةِ حـــرَّةً

لـــمْ تَحْـــنِ يَوْمـــاً رَأْسَـــهَا لِمَـــذَلَّةِ

كَابَـــدْتِ تـــاريخَ النِّضَـــالِ أَبيَّـــةً

وكَتَبْـــتِ للتَّـــارِيخِ أَرْوَعَ صَـــفْحَةِ

شموخ المدينة تلك هي الفكرة والقناعة التي سيطرت على الشاعر " محمد التهامي" الذي ظل قلبه معلقاً ببغداد يرى في رحابها عظمة النضال ويتنسم

(١) وحي بغداد – د / زكي مبارك ص ٢٤ – طبعة المكتبة العصرية ببغداد – الأولى ١٩٣٨م.
(٢) من ديوان " أنوار شعرية في المسيرة الإسلامية " – محمد التهامي ص ١٣٩ – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عدد ١٥٧ – ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م – والأبيات من بحر الكامل التام .

بين أجوائها قدسية التضحية ويتطلع إلى أن تشنف آذانه بين ربوعها بترانيم الحرية بعد سنوات غلاظ قضتها وما زالت تقضيها في الأسر والاحتلال بأشكاله المختلفة لاسيما في تاريخنا المعاصر بعدما جنته وتجنيه العراق على أثر طمعها في ثروات جارتها وطمع الدول الكبرى في ثرواتها وثروات المنطقة وما ترتب على ذلك من أحداث .

ويستطرد " محمد التهامي " في خطاب المدينة الجريحة مستعرضاً ومذكراً بتاريخ نضالها الطويل ، يقول [1] :

وَمَشَـــيْتِ يـــا بنْـــتَ النَّعِـــيمِ عَلَـــى اللَّظَـــى

مـــا اهْتَـــزَّ عُـــودُكِ فـــي جَـــلاَلِ المِشْـــيَةِ

سِـــــيَانُ هامَتُـــــكِ الرفيعـــــةُ إنْ مَشَـــــتْ

فـــي خضْـــرَةِ الأيَّـــامِ أَوْ فـــي الجَمْـــرَةِ

وغَسَـــلْتِ بالـــدمِ تربـــةً لـــوْ أَنْصَـــفُوا

وَزَنُـــوا بِسَـــاحَتِهَا الحَصـــاةَ بـــدُرَّةِ

لا يزال الشاعر يرى في بغداد المدينة الحصينة صاحبة الإشعاع الحضاري التي لا تهتز أمام المحن ، تظل هامتها مرفوعة في أيام الضيق والانكسار كما في أيام الدعة والرخاء تمضي في تاريخ النضال .

ويستطرد الشاعر ليؤكد على فكرة القدر المحتوم باستمرار النضال على هذه المدينة ، حين يرى في أعداء الحاضر صورة أعداء الماضي ، تيارات مشبعة

(١) القصيدة نفسها ص ١٤٠ .

بأعاصير الأحقاد والضغائن والأطماع في ثروات الشعوب ، يقول [١] :

بَغْـدَادُ قَـدْ عَـادَ التَّتَـارُ وكُلُّهُـم
يَـأْتِي لِبَاطِلِـهِ الهَزِيـلِ بِحُجَّـةِ
يَتَسَـتَّرُونَ وَقَـدْ تَهَتَّـكَ سِتْرَهُـم
كَـمْ سَـقْطَةٍ فيـهِ وَكَـمْ مِـنْ عَـوْرَةِ
هُـمْ يُـدْمِنُونَ الكِـذْبَ حتَّـى إنَّهُـم
يَتَخَلَّصُـونَ بِكِذْبَـةٍ مِـن كِـذْبَةِ
وَلَـدَى العِـرَاق وقَـدْ بَـدَا " بِتْرُولُـهُ "
فـي عَيْـنِهم حُجَـج الـدَّلِيلِ المُسْكِتِ
بَغْـدَادُ .. قَـدْ سَـاقُوا إِلَيْـكِ بُغَـاثَهُم
وَتَوَهَّمُـوكِ فَرِيسَـةً لَـنْ تُفْلِـتِي [٢]
حَتَّـى وَقَفْـتِ وَقَـدْ لَوَيْـتِ رِقَـابَهُم
فَصَـغِيرُهُم وَكَبِيـرُهُم فـي القَبْضَـةِ

نـرى الشـاعر فـي هذه الأبيـات وقد رسم كثيراً مـن السـمات العدائيـة التـي اشتعلت بهـا قلـوب الأعداء غـلاً وحسداً وطمعاً والتـي تدفعهم إلـى محاولـة السيطرة علـى المدينـة ، كمـا أنـه رصد بعض أسـاليبهم للتوصـل إلـى هذه الغايـة كـالتبرير

(١) القصيدة نفسها ص ٢٥٤ .

(٢) بُغاثهم : البُغاث كل طائر ليس من جوارح الطير . [لسان العرب ٢ / ١١٨] .

المبتذل والتخفي والخيانة والكذب ، وهي صفات لازمة ومتأصلة في أعداء الماضي والحاضر ، وفي كل مرة تبقى بغداد شامخة مرفوعة الرأس ويرحل العدو مطأطئ الرأس تحدوه الخيبة ويجلله العار .

وعلى الجملة يمكن القول إن معاني بطولة بغداد في قصائد " محمد التهامي " تتلخص في التعبير عن شموخ المدينة وعلو هامتها على مر التاريخ رغم القدر المحتوم بتوالي نكباتها ، وكذلك رصد سمات التشابه بين أعدائها ، وأسباب تطلعهم إليها ، وقد تعددت قصائد الشاعر في عشق القصيدة الجريحة غير أن معاني البطولة فيها لم تخرج عن هذه المعاني .

ومما يدل على ذلك قوله في قصيدة أخرى بعنوان " بغداد " تعبيرًا عن هذه المعاني نفسها [١] :

بَغْـدَادُ مَهْمَـا تُلاقِـي أَنْـتِ بَغْـدَادُ لابُـدَّ يَوْمـاً لَـكِ الأَيَّـامُ تَنْقَـادُ

كَـمْ عِشْـتِ فِـي قِمَّـةِ التَّـارِيخِ سَـيِّدَةً يَعْنُـو لِجَاهِـكِ أَحْـرَارٌ وَأَسْـيَادُ [٢]

أُغْرِمْـتِ بالمَجْـدِ حِينـاً وانْفَـرَدْتِ بِـهِ لـم يبـقَ حولَـكِ للبـاقين أمجـادُ

حَتَّـى إِذَا جَـاءَ عَهْدُ القَيْدِ مَـا انْخَفَضَتْ فيـكِ الجِبَـاهُ ولَـمْ يَهْزِمْـكِ أَوْغَـادُ

أما الشاعر " عبده بدوي " [٣] فربما كان أكثر الشعراء اختلافاً في التعبير

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى ٢٥٢/١ ، والأبيات من بحر البسيط التام

(٢) يعنو : من عنا يعنو إذا ذلَّ وخضع . [لسان العرب ١٥ / ١٠١] .

(٣) عبده بدوى : الدكتور عبده محمد بدوي ولد عام ١٩٢٧ بمحافظة البحيرة بمصر. عمل مديراً ورئيساً للتحرير لعدد من المجلات الأدبية. له عشرات الدراسات في المجلات العربية المتخصصة ، ومن أشهر دواوينه الشعرية: " شعبي المنتصر " ١٩٥٨ – " باقة نور"١٩٦٠ م ، وتوفى فى يناير ٢٠٠٥ م .[نقلاً عن : الشعر فى السودان – د / عبده بدوى ص ٢٠١ – ط عالم المعرفة – الكويت ١٩٨١ م] .

عن معاني بطولة المدينة الجريحة ، فقد اختار التعبير بمفهوم الحس التاريخي واستلهامه بعض شخصيات التاريخ الإسلامي التي عرفت بالبطولة والفداء مضمناً المعنى دلالة استدعاء الشخصية على نضال المدينة في الماضي والحاضر ، ورغم قلة الأبيات التي تدل على معاني نضال بغداد في شعر " عبده بدوي " نجده بهذا الاستلهام قد أدى المعنى وأفاض ، يقول في قصيدة بعنوان " بغداد " [1] :

النَّصْـــرُ أَصْـــبَحَ مَحْتُومـــاً وَمُـــدَّخَراً

للشَّـــعْبِ جَيْشـــاً وصُـــنَّاعاً وزُرَّاعَـــا

فـــي كُـــلِّ دَرْبٍ نَـــرَى سَـــعْداً يُطَالِعُنَـــا

وقَـــدْ نُصَـــاحِبُ طُـــولَ اليـــومِ " قَعْقَاعَـــا "

يرى الشاعر النصر قدرًا حتمياً مهما طال انتظار المدينة أو غار جرحها ، ثم نجده يستدعي شخصيتي صحابيين جليلين من التاريخ الإسلامي عرفتا بالبطولة والفداء للتدليل على هذه الفكرة التي عرفتها الدراسات النقدية بتوظيف التراث في الإبداع الأدبي ، وهي ظاهرة جديرة بالشرح والتحليل .

وقد ضم عصر صدر الإسلام رجالاً ضربوا المثل الأعلى في التضحية ونكران الذات وصار ذكرهم يثير في النفوس معاني الشموخ والصمود والنضال ، " وبالطبع فإن الشاعر يختار من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والمعاني التي يريد أن ينقلها إلى المتلقى ..." .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوى ٢ / ١٦٧ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م ، والبيتان من بحر البسيط التام .

ولعل هذا هو ما حدا بالشاعر " عبده بدوي " أن يستدعي شخصيتي الصحابيين الفارسين للتعبير عن بطولة بغداد ، فهو يستمد رموزه من شخصيات التاريخ النابضة بقيم البطولة والشجاعة والنضال لتشكيل معلم الوجود العربي ، وقد اختار الصحابي الجليل " سعد بن أبي وقاص " رضي الله عنه ، وهو البطل الذي ارتبط في وجداننا بمشاعر الفخار نظراً لانتصاراته المتتالية التي حققها بإعجاز باهر ، وهنا يبدو مفهوم الحس التاريخي وهو لا يتضمن معنى إدراك النضال الماضي فحسب ، بل إدراك حاضره كذلك .

و" القعقاع بن عمرو " – رضي الله عنه – هو الفارس الآخر من صحابة النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي استمال الشاعر بسيرته التي تعكس ملامح بطولته الأصيلة ونضاله ، حيث جعل الشاعر منه رمزاً للفارس العربي البطل المعروف بحميته ونضاله الذي يجعله أهلاً للاستنفار عند الإحساس بحاجة إليه .

وقد أورد الشاعر الصحابيين الجليلين في قصيدته عن بغداد رمزاً لنضالها ، حيث يرى سعداً والقعقاع بن عمرو – رضي الله عنهما – في كل درب من دروب المدينة وكأنهما يخرجان إلى الأعداء بفرسيهما قادمين من عمق التاريخ حاملين رمحيهما يناضلان مع المدينة ، ويصاحبان أبناءها وهى تواجه الأعداء في بسالة وصمود .

وقد رأينا الشاعر – مستخدماً خياله – يحل بنفسه جندياً في المعركة يرى سعداً ويصاحب القعقاع – رضى الله عنهما – ، وهى صورة مبالغة تصور ملازمتهما للمدينة في إشارة إلى ملازمة المدينة للبطولة والنضال .

ولعل من الملائم هنا أن نطرح السؤال : لماذا استعادت مخيلة الشاعر صورتي سعد بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو خاصة ؟ ولماذا جعل كلاً منهما

عدلاً لمقاومة المدينة الباسلة ؟ والشاعر لم يتحدث عن السمات التي أضفت على سعد والقعقاع – رضي الله عنهما – دلالات قومية وبطولية جعلت تاريخهما يطالب استدعاءً شعرياً ورمزياً لما عرفا به في التاريخ من روحهما الفدائية وملازمتهما للبطولة والنضال .

فـ " سعد بن أبي وقاص " هو ذلك الفارس المغوار والبطل الصنديد الذي قاد جيش المسلمين ورفع راية الإسلام في العديد من المعارك ، ومن ثمَّ اشتهر بالبطولة وبقي عمره المديد تحفه بركة النبي – صلي الله عليه وسلم – حين دعا له أن يكون مستجاب الدعوة [١] .

و" القعقاع بن عمرو " هو البطل التميمي الذي يقال إن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – قال " لا يهزم جيش فيه القعقاع " ، " وصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل " [٢] ، وهو رمز للفارس العربي الممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة [٣] طار إليها .

---

(١) عن سعد بن أبي وقاص ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته " . [المستدرك على الصحيحين للحاكم – كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم ذكر مناقب أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه – حديث : ٦١٣٦ . ط دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م وضعفه الألبانى فى مشكاة المصابيح برقم ٦١٢٤ ، ط المكتب الإسلامى – بيروت – الثالثة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م] .

(٢) ينظر : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – للحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبى ٢٥٨/٢ – طبعة دار الغد العربية – الطبعة الأولى ١٩٩٦ م .

(٣) الهيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو [لسان العرب ٨ / ٣٧٨] .

وحين نتتبع الأسباب الكامنة وراء استدعاء الشخصيتين فربما يجسد الشاعر – عبر معاني نضال المدينة وكفاح أبنائها – شفافية الأرواح التي غمرتها النزعة الدينية والنفحات الإيمانية الخالصة التي تهون ولا شك على المدينة ما تلاقيه من آلام ومعاناة خلال هذا النضال المستمر.

وقد نجح الشاعر " عبده بدوي " في توظيف التراث الذي هو " لون من التراسل الشعوري بين الشاعر وبين رؤيته المعاصرة ، ومن ثمَّ فإنه يوظف التراث رمزاً للإيحاء بأبعاد هذه الرؤية ، وكثيراً ما يقترن توظيف الشخصية بتوظيف الحدث ، لأن الحدث لابد أن يقوم به شخص أو مجموعة من الأشخاص..." [١] .

ونرى الشاعر في أبياته عن نضال المدينة الجريحة لم يضن على هذه المواقف المضيئة في تاريخنا الحديث بوضعها في إطار واحد مع قرينة لها في الماضي ، وهو بذلك أيضاً يقرن موقف الخزي والعار لأعدائنا في الماضي بنظيرها لأعداء الحاضر ، وعلى الجملة يمكن القول: إن الشاعر يعكس – باستلهام التراث وتوظيفه في النص الشعري – رؤيته للنموذج المثالي الواضح لروح النضال .

ومن الشعراء الذين تغنوا بالمدن العربية في أشعارهم: " علي الجارم " [٢] ، لاسيما هذه المدينة الجريحة ، غير أن أكثر اهتمامه كان بملامح المدينة ودورها الرائد ونضالها الثقافي، أما معاني النضال بمعنى البطولة وخوض المعارك فهي قليلة في شعره ، ولا أدل على ذلك من هذه الأبيات القليلة عن بطولة

(١) دراسات نقدية في شعرنا الحديث – د/ علي عشري زايد ص ١٠٧ – طبعة مكتبة ابن سينا ٢٠٠٢م .

(٢) على الجارم : (١٢٩٩ – ١٣٦٨ هـ / ١٨٨١ – ١٩٤٩ م) : على بن صالح بن عبد الفتاح الجارم : أديب مصرى ، من رجال التعليم ، له شعر ونظم كثير ، ولد فى رشيد ، وتعلم فى القاهرة وانجلترا ، واختير ليكون كبير مفتشى اللغة العربية بمصر ، ثم وكيلاً لدار العلوم حتى عام ١٩٤٢ م ، مثَّل مصر فى بعض المؤتمرات العلمية والثقافية وكان من أعضاء المجمع اللغوى [معجم تراجم الشعراءالكبير[١ / ٥٤٠] .

بغداد ، وقد وردت في قصيدته المطولة المسماة باسم المدينة ، والتي بلغت تسعة وتسعين بيتاً ، يقول [١] :

كَـــمْ جَـــاشَ بَيْتُـــكِ بـــالفَوَارِسِ
مِـــــنْ أَسَـــــاوِرَةٍ وَصِيـــــدِ ![٢]
للنَّصْـــــرِ فـــــي أَعْلامِهِـــــمْ
صِـــــلَةٌ بِأَبْنَـــــاءِ الغُمُـــــودِ
مُلْـــــــكٌ إِذَا صَوَّرْتَـــــــهُ
عَجَـــزَ الخَيـــالُ عَـــنِ الصُّـــعُودِ
وجُهُـــودُ جَبَّـــارِينَ تَصْغُـــرُ
دُونَهَـــــا شُـــــمُّ الجُـــــهُودِ

وقارئ هذه الأبيات يرى أن الشاعر لم يعمد للحديث عن نضال المدينة المقاومة ، غير أنه ربما اتخذ الأبيات مطية للانتقال عن دور المدينة الرائد وأهميته للقومية العربية ، وهذا لا ينفي تقدير الشاعر لجيش بغداد المناضل الذي يشبهه بالبحر الزاخر الذي يموج ويضطرب ويأبى السكون بما يملك من فوارس ورماة أسود ينسبهم الشاعر أبناءً للسيوف ، بلغ ملكهم بين المشرق والمغرب ما يعجز عن تصوره الخيال ، في إشارة إلى قرون مضت كانت فيها المدينة الجريحة عاصمة الخلافة الاسلامية .

---

(١) ديوان علي الجارم ص ١٨٩ – طبعة الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الثانية ١٩٩٠م، والأبيات من بحر الكامل المجزوء .

(٢) أساورة : جمع إسوار وهو الجيد الرمى بالسهام . [لسان العرب ٤ / ٤١٨] .

وهـذه هـي المعـاني نفسـها التـي نظـم الشـاعر " أبـو الوفـا رمـزي نظيم " [١] عليها معاني نضال بغداد في أبيات قليلة من قصيدته " تحية العراق " ، يقول[٢] :

بغـــدادُ كانَـــتْ للخِلافَـــةِ مَوْئِـــلاً

فـــي الأرضِ تَبْسُـــطُ عَـــدْلَهَا وَحَنَانَهَـــا

أُمُّ المَمَالِـــكِ هُـــمْ صِـــغَارٌ حَوْلَـــهَا

تَحْمِـــي بِسَـــطْوَةِ بَأْسِـــهَا وُلْدَانَهَـــا

وتَقُـــومُ للخُلَفَـــاءِ أَضْـــخَمَ دَوْلَـــةٍ

حَرَسَـــتْ بِأَشْـــفَارِ السِّـــيُوفِ كَيَانَهَـــا

كَانَـــتْ تَهُـــزُّ الأَرْضَ غَضْـــبَةُ جُنْـــدِهَا

وتَصُـــونُ تَحْـــتَ جَنَاحِهَـــا جِيرَانَهَـــا

---

(١) أبو الوفا رمزى نظيم : (١٣٠٦ – ١٣٧٩ هـ / ١٨٨٩ – ١٩٥٩ م) : محمود رمزى نظيم بن محمود رمزى الحسينى أبو الوفا : شاعر من كبار الزجالين فى مصر ، ولد فى : بركة السبع " من قرى المنوفية ، وفى عامه الأول مات والده فسمى باسمه ، قال الشعر والزجل ، ولقِّب بشاعر المظاهرات ، وعمل فى الصحافة مدة ٣٥ عامًا ، وخدم الثورة المصرية سنة ١٩١٨ م بنظمه ومقالاته ، كانت فيه نزعة صوفية ، ظهرت فى بعض نظمه وجمع كثير من أشعاره وأزجاله بعد وفاته في كتاب" الرمزيات " . [الأعلام ٧ / ١٧٠] .

(٢) ديوان نظيم – أبو الوفا رمزى نظيم ص ٣٥٦ – طبعة مطابع جريدة الصباح بالقاهرة ، والأبيات من بحر الكامل التام .

وحق للشاعر فحين تقوى الممالك يخشاها الزمان ويتقي عدوانها ويقوى إيمانها بوجودها ، وتهتز الأرض تحت غضبة جنودها ، ومن ثم ينهض الشعر ليقوم بدوره نحو تخليد بطولتها ونضالها .

والحق أنها ليس بغداد وحدها ، وإنما تبقى أكثر الحواضر العربية هى القاسم المشترك في هذه المعارك التي تدور على أرضها فتسقط الشرر على ألسنة الشعراء التي تلهب معاني المقاومة والنضال في شعور الشعوب فتفيق من سباتها وليس بعيداً أن تلهب شعور المدينة نفسها فتتحرك نضالاً من أجل الحرية .

المبحث الثاني

بغداد .. الحضارة والتاريخ

إذا كانت بغداد من أكثر المدن العربية وروداً في قصائد الشعراء العرب من حيث البطولة والنضال ، فهي أكثر المدن العربية وروداً في الشعر الحديث من حيث العراقة والتاريخ ، فهي حاضرة الخلافة الإسلامية ومهد الحضارة المدنية وقلعة الأسود التي أقامها العباسيون عاصمة لدولتهم ومنارة العلم المستهدفة منذ القدم ، حيث السهام الغادرة والطعنات الجازرة التي وجهت إليها على مر التاريخ ولعل ذلك لحقد على الدين دفين وحسد على المدينة لعين .

وقد نهض الشعراء يتغنون بتاريخ هذه المدينة الباسلة وعراقتها وجاء الحديث عن الخليفة العباسي هارون الرشيد قاسماً مشتركاً في حديث الشعراء عن تاريخ بغداد وعراقتها ، فقد استدعى الشعراء هذه الشخصية التاريخية،لما لها من كبير الأثر في ازدهار المدينة التي كانت في عهده حاضرة الشرق وعاصمة الخلافة ، كما أن كثيراً من الشعراء أشار في قصائده عن تاريخ المدينة إلى ذلك الأثر المشهور عن " هارون الرشيد " حين نظر من شرفة قصره إلى سحابة في السماء وخاطبها بقوله : " أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك " [1] كناية عن اتساع الفتوحات الإسلامية والبلاد التي كانت تحت خلافته إلى الحد الذي يجعل من بغداد محطاً وموعداً للخير أينما كان ، فهي في عهده درة الخلافة التي تسيطر على الدنيا من أسوار الصين في الشرق الأقصى ، وحتى بلاد الأندلس في المغرب الأقصى .

---

(١) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة – جمع وإعداد / علي بن نايف الشحود ٥٨ / ١٣٥ – طبعة المكتبة الأكاديمية ٢٠٠١ م .

ومن هؤلاء الشاعر"محمود غنيم " [1]الذي يقول في قصيدته " بغداد " [2] :

بغدادُ قُرَّةُ عَيْنِ الشَّرقِ ، بَغْدَادُ
لَحْنٌ تَغَنَّى بَهِ الإِسْلامُ والضَّادُ
الدَّهْرُ يَعْرِفُهَا لِلْكَوْنِ عَاصِمَةً
تَقُودُهُ كَيْفَمَا شَاءَتْ ؛ فَيَنْقَادُ
إِنْ تَبْتَسِمْ تُشْرِقُ الدُّنْيَا وإِنْ غَضِبَتْ
فَفِي السَّمَاوَاتِ إِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ
تُزْهِى الحَوَاضِرُ مَا شَاءَتْ بِحَاضِرِهَا
وَكُلُّهَا لَكِ يَا بَغْدَادُ أَوْلاَدُ
مَا كَاسْمِ بَغْدَادَ فِي الأَفْوَاهِ أغنيَةٌ
وَلاَ كَأَمْجَادِكُم يَا قَوْمِ أَمْجَادُ

(١) محمود غنيم : شاعر مصري ولد بقرية مليج التابعة لمحافظة المنوفية بمصر سنة ١٩٠٢ م ، درس بالمعهد الأحمدي الأزهري بطنطا ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعي ، ثم التحق بمدرسة دار العلوم ، من دواوينه صرخة في واد ، في ظلال الثورة ، رجع الصدى وتوفى فى ١٩٧٢ م . [الأعلام ٧ / ١٧٩ .

(٢) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ /٦٧١ – طبعة دار الغد العربي ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، والأبيات من بحر البسيط التام .

جعل الشاعر من بغداد واسمها أغنية في الأفواه ، ولحناً طروباً تتغنى به العروبة كلها مذكراً بتاريخها العريق حين كانت عاصمة الشرق التي تتحكم في مقدراته ، كما جعل الشاعر من المدينة بتاريخها المشرق أماً للمدن العربية التي تزهو بحاضرها . وفي مقطع آخر من قصيدته يقول [١] :

دعْنـــي أَعِـــيشُ مَـــعَ المَاضِـــينَ فـــي حُلُـــمٍ
إنَّ الهُمُـــومَ عَلَـــى اليَقْظَـــانِ تَـــزْدَادُ
عَـــلَّ الرَّشِـــيدَ إذا أَنْشَـــدْتُ يَسْـــمَعُنِي
إنَّ الرَّشِـــيدَ كَـــرِيمُ الكَـــفِّ جَـــوَّادُ
ومَـــا الرَّشِـــيدُ سِـــوَى لَحْـــنٍ يُـــرَدِّدُهُ
فَـــمُ الزَّمَـــانِ ، وللأَلْحَـــانِ تَـــردَادُ
حصَّـــادُ هـــامِ العِـــدا فـــي كُـــلِّ مَعْرَكَـــةٍ
وللسَّـــنَابِلِ يَـــوْمَ السِّـــلْمِ حَصَّـــادُ
يَنْهَـــى ويَـــأْمُرُ فـــي الـــدُّنْيَا ، وفِـــي يَـــدِهِ
بَعْـــدَ المَقَـــادِيرِ إشْـــقَاءٌ وإسْـــعَادُ
تُزْجَـــى إليْـــهِ هَـــدَايَا الـــرُّومِ لاَ كَرَمـــاً
إنَّ الضَّـــعِيفَ لِمَـــنْ يَخْشَـــاهُ وَدَّادُ [٢]

(١) القصيدة نفسها ص ٦٧٣ .
(٢) تُزجى : تُساق وتُدفع . [لسان العرب ١٤ ١٤ / ٣٥٥] .

أَهَـــابَ بالسُّـــحْبِ أَنَّـــى شِـــئْتِ فانْسَـــكِبِي

فَكُـلُّ نَبْتِـكِ لِـي ، يَـا سُـحْبُ ، إيـرَادُ

يستدعي الشاعر في هذه الأبيات شخصية الخليفة "هارون الرشيد " من التاريخ ليضفي على قصيدته ثراءً رمزياً بكل ما له من إيحاءات ومعاني وأبعاد ، فلا شك أن استخدام العنصر التاريخي – في هذه الأبيات – يعد رمزاً أو تلميحاً أو تذكيراً بتاريخ المدينة وعراقتها ، وقد وضح أن الشاعر أراد توظيف هذا الاستلهام التاريخي لشخصية الرشيد توظيفاً أدبياً ليقول من خلاله شيئاً جديدًا ، ولعله يبكي من خلال هذا الاستلهام التاريخي ملك بغداد الضائع ، وعزها المسلوب وقد استطرد الشاعر في ذكر خصال الرشيد ووصفه بالجود والكرم ، والقوة التي جعلت القوى العالمية الكبرى تتودد إليه وتخشاه ، ولعل هذا الاستطراد أيضاً لون من الحسرة والحزن على فقد المدينة لهذه الريادة وهذا المجد المترامي[١].

ومن الشعراء الذين هاموا بتاريخ بغداد وعراقتها الشاعر : " علي الجارم " في قصيدته " بغداد " ، ولم يخل هذا الهيام أيضاً من استدعائه شخصية الخليفة العباسي " هارون الرشيد " ، يقول [٢] :

---

(١) ولعل هذا الفقد كان مقدمة لما تعاصره المدينة العريقة من ذل وانكسار وهوان ، وكذلك العرب جميعاً إلى الحد الذي جعل الدكتور زكي نجيب محمود وهو يتحدث عن العرب والعلم الآن يقول وكأنه يقرع ناقوسًا محذرًا : لو كتب تاريخ العلم اليوم فلن يظفر فيه العرب جميعاً بسطر واحد ، أجل لن يذكروا بسطر واحد، إنهم ليسوا جزءاً من نظريات العلم الراهنة ولا شركاء في منجزاتها وتطبيقاتها ، هم فقط – وفي أحسن الأحوال – مستهلكون ومستوردون عالة على فكر الغرب وعالمه [ينظر: ثقافة الأسلاك الشائكة – فاروق شوشة ص ٢٧٤ – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة القراءة للجميع ٢٠٠١] .

(٢) ديوان الجارم ١ / ١٨٧ ، والأبيات من الكامل المجزوء .

بَغْـــدَادُ يَـــا بَلَـــدَ الرَّشِـــيدِ !

وَمَنَـــــارَةَ المَجْـــــدِ التَّلِيـــــدِ

يـــــا بَسْـــمَةً لَمَّـــا تَـــزَلْ

زَهْـــرَاءَ فـــي ثَغْـــرِ الخُلُـــودِ

يـــا سَـــطْرَ مَجْـــدٍ للْعُـــرُو

بَـــةِ خُـــطَّ فِـــي لَـــوْحِ الوُجُـــودِ

يـــا رَايَـــةَ الإِسْـــلامِ ، وَالـــ

إِسْـــــلامُ خَفَّـــــاقُ البُنُـــــودِ

يَـــا مَغْـــرِبَ الأَمَـــلِ القَدِيـــ

ـــمِ وَمَشْـــرِقَ الأَمَـــلِ الجَدِيـــدِ

استهل الجارم قصيدته يردد المعاني ذاتها ، مناديًا بغداد بلد الرشيد وصاحبة الأمجاد التي كانت موطن الحب ومضرب الأمثال ورايـة الإسلام ومجد العروبة ، ثم جاءت نظرته أكثر تفاؤلاً من سابقه حين رأى أملاً جديدًا للمدينة يشرق كلما غرب لها مجد قديم ، وكذلك حين رأى أمجاد بغداد القديمة باقية وباسمة على وجه الخلود .

وتأكيداً لمعاني المجد والعز في تاريخ المدينة العريقة جاءت قصيدة " بغداد " للشاعر" عبده بدوي " ، وفيها يقول [1] :

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوي ٢ / ١٦٥ – والأبيات من بحر البسيط التام .

أكبـرتُ فيـكِ مِـنَ التَّـارِيخِ طوَّاعَـا

والمَجْـدُ والشِّـعْرُ .. إِقْـدَاماً وإِبْـدَاعَا

يَـا جَنَّـةَ الحُبِّ قَـدْ دَارَتْ عَلَـى مَهَلٍ

حَدِيقَـةً ، واسْتَفَاضَـتْ بَعْـد إِشْـعَاعَا

ثم يقول :

الغَـيْمُ فـي أُفُقِـكِ المَاضِـي بِرَوْعَتِـهِ

أَعْطَى الخَرَاجَ لِبَيْتِ المَالِ مُنْصَاعَا

وكما اشترك الشاعر مع سابقه في الغرض الشعري والمعنى المراد ، نجده يشاركه أيضاً في توظيف الأثر التاريخي عن الخليفة " هارون الرشيد " وقصة مخاطبته للسحاب ، ولا شك أن هذا من الشاعر تأكيد على فكرة المجد البغدادي في هذه الحقبة ، فقد خلع الشاعر على الغيم " الظاهرة الطبيعية " صفات العطاء والانصياع والطاعة ، فهو عندما يهطل مطر على أية أرض يستطيع الوصول إليها ، فهي لن تبتعد عن إمرة بغداد التي يأتيها خراج هذه الأرض .

ويبدو أن فكرة الاستدعاء التاريخي وتوظيف التراث قد أخذت بلب الشاعر فنجده في قصيدته الثانية " بغداد .. في حلم " يستدعي الشخصية نفسها مصوراً تاريخ بغداد العريق من خلال حلم يراه في منامه ، يقول [1] :

(١) الأعمال الكاملة – د / عبده بدوى ٢ / ٣٢٤ ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

صَـــــحِبَتْ مَـــــوْكِبِي عُيُـــــونُ العَـــــذَارَى
والنَّـــــــوَافِيرُ والقِبَـــــــابُ القَشِـــــــيبَه [1]
ثُـــــمَّ سِـــــرْنَا لِمَجْلِـــــسٍ عَبْقَـــــرِيٍّ
فِـــيهِ وَجْـــهُ " الرَّشِيـــدِ " وَجـــهُ العُـــرُوبَه
قَـــدْ سَـــقَاهُ الوجـــودُ مِـــنْ كَأْسِـــهِ الضَّـــخْمِ
وَرَوَّى جِبَالَـــــــــــهُ وَسُـــــــــــهُوبَه

حتى في حلم النائم كان وجه الخليفة " الرشيد " هو أهم معالم تاريخ المدينة العريقة وقد جعل الشاعر هذه الشخصية المستدعاة وجهًا للعروبة كلها تأكيداً على عراقة بغداد لاسيما في عهد خلافة الرشيد ، وقد استند الشاعر في دعواه إلى ما اشتهر به الرشيد في التاريخ بأنه أحد من ملكوا الدنيا نظراً لاتساع الدولة الإسلامية في خلافته .

وفي هذه المعاني أيضاً جاءت قصيدة " بغداد " للشاعر " محمد التهامي "، لاسيما في حديثه عن تاريخ المدينة وعراقتها حين خاطبها متسائلاً [2] :

(١) القباب : جمع قُبَّة وهى من البناء معروفة . [لسان العرب ١ / ٦٥٧] . والقشيبة : كل شيء جديد قشيب [لسان العرب ١ / ٦٧٢] .

(٢) أنوار شعرية في السيرة الإسلامية – محمد التهامي ص ١٣٩ ، ١٤٠ – والأبيات من بحر الكامل التام .

هَـلْ تَـذْكُرِينَ المَجْـدَ حـينَ تَضَـوَّعَتْ

أَنْفَاسُـــه فـــي يَـــوْمِ مَوْلِـــدِ طِفْلَـــةِ [1]

قَــدْ كُنْــتِ يَــا بَغْــدَادُ كُــلَّ عَبِيــرِهِ

حَتَّـــى وَأَنْـــتِ هُنَـــاكَ بُـــرْعمُ زَهْـــرَةِ

وَحَكَمْتِ حَتَّى فِي السَّحَابِ فَلَوْ مَضَى

فَخَرَاجُـــهُ مُسْـــتَغْفِرٌ فِـــي العَـــوْدَةِ

والمَـــالِكُونَ أَمَـــامَ بَابِـــكِ خُشَّـــعٌ

أَعْنَـــاقُهُم فِيهَـــا خُضُـــوعُ البَيْعَـــةِ

آتَـــاكِ رَبُّـــكِ نِعْمَـــةً فَشَـــكَرْتِهَا

وَعَلامَـــةُ الإيمَـــانِ شُـــكْرُ النِّعْمَـــةِ

وَتَبَـدَّلَتْ مِـن حَوْلِـكِ الـدُّنْيَا وَكَـمْ

مِـــنْ حُلْـــوَةٍ فِيهَـــا وَكَـــمْ مِـــنْ مُـــرةِ

نرى الشاعر في هذه الأبيات وقد تحقق له ما أراد من الحديث عن تاريخ المدينة وعراقتها ، فهو يكسب تجربته الفنية بنوع من الأصالة الفنية بإكسابها هذا البعد التاريخي الحضاري وهو في هذا يشارك سابقيه بذكر الشخصية نفسها وما من شك في أن هذا من حق الشعراء إذ إن هذه الشخصية هي الأقوى والأكثر ظهوراً

(١) تضوعت : ضوَّع حرك وهيج . [لسان العرب ٨ / ٢٢٨] .

في تاريخ المدينة العريق ، غير أن " محمداً التهامي " اختار أسلوب الخطاب في تذكير المدينة بمجدها القديم فجاء أكثر واقعية وبلوغاً إلى هذا المجد الضائع ، كما أنه كان في هذه الأبيات أكثر تأكيداً على فكرة السيطرة البغدادية على الدنيا حين كانت حاضرة الخلافة الإسلامية تخضع أمام أبوابها الأعناق وتؤدي لها الأمم الخراج ، وقد بدا أن حداثة " محمد التهامي " جعلته الأكثر شعوراً بهذا المجد الضائع للمدينة العريقة ، لاسيما بعدما رأى ما يعتري حاضرها من ذل وهوان ، كما أنه كان الأكثر تأكيداً على هذا المجد البغدادي في قصيدة أخرى بعنوان " بغداد " أيضاً ، يقول مخاطباً المدينة [1] :

كَـــمْ عِشْـــتِ فِـــي قِمَّـــةِ التَّـــارِيخِ ســـيِّدَةً

يَعْنُـــــو لِجَاهِـــكِ أَحْـــرَارٌ وَأَسْـــيَادُ [2]

أُغْرِمْـــتِ بالمَجْـــدِ حِينـــاً وانْفَـــرَدْتِ بِـــهِ

لَـــمْ يَبْـــقَ حَوْلَـــكِ للبَـــاقِين أَمْجَـــادُ

حَتَّـــى إِذَا جَـــاءَ عَهْـــدُ القَيْـــدِ مَـــا انْخَفَضَـــتْ

فِيـــكِ الجِبَـــاهُ وَلَـــمْ يَهْزِمْـــكِ أَوْغَـــادُ

فهو يرى أنها انفردت بالمجد والسيادة ، وبلغ من غرامها بالمجد أنها استحوذت عليه فلم تبق لغيرها من المدن نصيباً ، وربما كانت هذه المبالغة في وصف المجد القديم تنطوي على شعور دفين في نفس الشاعر بما تعاصره المدينة العريقة من ذل وانكسار .

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامي ١ / ٢٥٢ والأبيات من بحر البسيط التام .

(٢) يعنو : من عنا يعنو إذا ذلَّ وخضع . [لسان العرب ١٥ / ١٠١] .

المبحث الثالث

بغداد : الحزن والرثاء

غير خفي أن أرقى صورة فنية رسمها الشاعر العربى فى رثاء المدينة تتجلى فى مراثى المدن فى الشعر الأندلسى مما عدها النشأة الحقيقية لهذا الغرض الشعرى [١].

وقد وجد هذا الغرض الشعرى له أرضاً خصبة فى مدننا العربية فى عصرنا الحديث ، ذلك أن بكاء المدن ورثاءها يعد تعبيراً عن حس شعرى متأثراً بمشاهد الفتن ، والموت ، والحروب ، والخراب ، والاحتلال ، والضياع ، وغير خفى أن هذه المعانى جمعاء هى التى تعبر عن حال الحواضر العربية فى العصر الحديث ، ولذلك فإن قارئ شعر المدينة العربية فى العصر الحديث يجد كثيراً من الشعراء قد ذرفوا دموعاً حارة على كثير من المدن العربية لاسيما مدينة بغداد .

ومن هؤلاء الشعراء الذين رثوا مدينة بغداد وتألموا لما يمر بها من أحداث الشاعر " محمد التهامى " ، وبخاصة فى قصيدته " بغداد " ، والتى بدأها باكيًا يقول [٢] :

بغـدادُ إنْ فاضَـتْ ببابِـكِ دَمْعَتِـى

لا تَرْحَمِـى ضَـعْفِى وَلا تَتَلَفَّتِـى

(١) ينظر : تجربة المدينة في الشعر العربي المعاصر – د/ عبد السلام الشاذلى ص٢٨ .

(٢) أنوار شعرية فى المسيرة الإسلامية – محمد التهامى ص ١٣٩ ، والأبيات من بحر الكامل التام .

أَمَّـا أَنَـا فَـدَعِى الشُّـجُونَ لِخَـاطِرِى

وَدَعِى العذَابَ المُرَّ يَتْلِفُ مُهْجَتِى

فَلَقَـــدْ أَتِيْتُـــكَ لا أَقُـــولُ مُواسِـــياً

لكِـنْ لأَنْشُدَ فـى صمودِكِ سَلْوَتِى

ورأَيْـتُ حُزْنَـكِ حَـوْلَ بابِـكِ هَيْبَـةً

زادَتْ عَلَـى مـا حوْلَـهُ مِـنْ هَيْبَـةِ

فـــالحزنُ حولَـــكِ كالخِضَـــمِّ تَـــدَفُّقاً

والصَّـبْرُ عنـدكِ كامتِنَـاعِ القِمَّـةِ

ومواكـــبُ الشـــهداءِ حولَـــكِ هالَـــةٌ

فيهَـــا مَلائِكـــةٌ تطـــوفُ بكَعْبَـــةِ

بدا الشاعر قد استهلَّ زيارته للمدينة بالدموع باكياً على مشارفها ، ثم هو يقدم المدينة على نفسه فيناديها ألا تعبأ بدموعه أو تتأثر ، فهو دائم الحزن والأسى بل والعذاب الذى يكاد يفتك بقلبه من شدة تأثره بحال المدينة .

ويخاطب الشاعر المدينة موضحاً أنه لم يأتها مواسياً بقدر مجيئه معزياً نفسه برؤية ثباتها وصمودها فى النوائب ، ويوضح الشاعر أنه رغم حالات الانكسار التى تمر بها المدينة وما تدعو إليه من شفقة زوَّارها إلا أنه حين التقاها شعر بهيبتها وكأن هذا الحزن زادها هيبة وقيمة ، وزادها تواليه صبراً ومنعة حتى ليرى الشاعر المدينة وكأنها كعبة ، ويرى شهداء المدينة وكأنهم ملائكة يطوفون بها .

وفى مقطع آخر من القصيدة يؤكد الشاعر حزنه وأساه لحال المدينة فيقول [١] :

يـا ويـلَ مَـنْ خَـانَوا ، وَمَـنْ قَـدْ هَـادَنُوا
والـــواقِفِينَ عَلَـــى دروبِ الحَيْـــرةِ
هـــذا التَّمَـــزُّقُ قَـــدْ أَضَـــاعَ شُـــعُوبَكِ
فـــى عـــالمٍ لا وَزْنَ فيـــهِ لِقِلَّـــةِ
سيســـوقُهُم ســـوْقَ الغُبَـــار أمَامَـــهُ
حتَّـــى يـــوارِيهِم هُنِـــاكَ بِحُفْـــرَةِ
ويحـــدّثُ التـــاريخُ عـــن أبنائِـــكِ
فيقـولُ قَـدْ كَـانُوا هنـاكَ وكَانَـتِ
بغـــدادُ إنِّـــى مِـــن فـــؤادِكِ بِضْـــعةٌ
حَنَّـتْ عَلَـى بُعْـدِ المـزَارِ لِبضْـعَةِ

يفيض الشاعر فى رثاء المدينة ووصف حزنه عليها ، فهو يصف كل من تخاذل عنها أو تقاعس عن نصرتها – من أبنائها ومن غيرهم – بالخيانة ، وكذلك من تردد فى مقاومة أعدائها ، وقد ردَّ الشاعر سوء حال المدينة وتكالب الأعداء عليها إلى تناحر أبنائها وحالة التمزق التى تعيشه طوائفها ومن ثم هانت على أعدائها وصغرت فى عيونهم ، كما يرى الشاعر أن بقاءهم على هذه الحالة سيؤدى

(١) القصيدة نفسها ص ١٤١ .

بهم إلى الموت ذلاً وهوانًا ويكونون ماضيًا يُطوى فى عالم النسيان ، ليظل التاريخ حين يحدّث عن بغداد لا يذكر سوى ماضيها العريق ، ثم يؤكد الشاعر شعوره حين يعد نفسه بضعة من أرض المدينة ، وعلى ذلك يكون شعوره بالحزن والأسى تداعياً من الجزء لسائر الأجزاء .

ومن هؤلاء الشعراء " هاشم الرفاعى " الذى رثى بغداد فى قصيدته " شرق وغرب " ومن ذلك قوله (١) :

أَيْقِـــظِ الشَّـــرْقَ وَهُـــزَّ العَرَبَـــا
فبريـــقُ المجـــد فـــى الشـــرقِ خَبـــا
عـــلَّ مَـــنْ عاشـــوا علـــى الماضـــى الـــذى
بـــذَّ فـــى نيـــل الفَخَـــارِ المَغْرِبَـــا (٢)
يَسْـــتعيدونَ سَـــنَا مُلـــكٍ لَهُـــم
قَـــدْ توانَـــوْا عَنْـــهُ حتَّـــى ذَهَبَـــا
قِـــفْ عَلَـــى بغـــدادَ – وانـــدُبْ مَـــنْ بهـــا
رَفَعـــوا للشَّـــرقِ ذِكـــراً طيِّبَـــا

(١) ديوان هاشم الرفاعى – تحقيق ودراسة : عبد الرحيم جامع الرفاعى – ص ١٦٢ ، والأبيات من بحر الرمل التام .

(٢) بذَّ " بذَّ القوم يبذهم بذًّا سبقهم وغلبهم . [لسان العرب ٣ / ٤٧٧]

وابـــكِ فـــى الأيَّـــامِ مَـــنْ قـــال وقـــدْ

أبْصـــرَ الغـــيْمَ تهـــادَى صَـــيِّبَا [1]

سِـــــر يمينـــــاً أو يســـــاراً إنَّ لِـــــى

خَـــرْجُ هـــذا المـــاء أنَّـــى سُـــكِبَا

بدأ الشاعر رثاءه لمدينة بغداد بإطلاق صيحة لإيقاظ الشرق العربى والإسلامى ، لعل أبناء هذه الأمة يستيقظون ويستعيدون ماضيهم التليد والذى قصروا فى الحفاظ عليه حتى ذهب عنهم تاركاً لهم الضعف والهوان .

وفى نزعة وطنية يرثى الشاعر مدينة بغداد ، ويندب أهلها الذين أعلو من شأن الشرق قديمًا ورفعوا ذكره ، إلا أنهم فى عصرنا الحديث استساغوا الذل والهوان وتخلوا عن ماضيهم المضيء ، كما يطلب الشاعر إلى من يسمعه أن يقف بأرض المدينة يندب ماضيها ويبكى ما صارت إليه ، كما يبكى الشاعر هارون الرشيد الذى كان يحكم الدنيا ويخاطب السحاب من هذه الأرض .

وقد صور الشاعر هذا القول فى نبرة حزن وبكاء أراد أن ينقلها لأمته العربية علها تفيق، واستخدم الشاعر أفعال الأمر" قف، واندب، وابك ، وسر ، وأيقظ " على ما تحمله هذه الأفعال من معانى الألم والحزن والرثاء التى تنطوى عليها نفس الشاعر تجاه مدينة بغداد .

وقد رثى مدينة بغداد أيضًا الشاعر " عبد العزيز جويدة " ، وحزن لما حلّ بها من دمار وخراب ، وذلك بعد حرب العراق مع جيش التحالف لتحرير الكويت

(١) صيِّبًا : نزول المطر وقيل المطر [لسان العرب ١ / ٥٣٤] .

وذلك فى قصيدته " عار علينا " ، ومما جاء فيها قوله [١]:

بغدادُ شِعْرُكِ ما عُدْنَا نُرَدِّدُهُ

مَنْ ذَا يُرَدِّدُ شِعرًا كُلُّه خُطَبَا

يا نهرَ دِجْلةَ كيْفَ الحالُ طَمْئِنِّى

هَلْ لا تَزَالُ عن الشُّطْآنِ مُغْتَرِبَا

وَمنَ الفراتِ تَهب الآنَ رائحةُ

جُثَثُ تفُوحُ ولوْنُ الماءَ مُخْتَضِبَا[٢]

قَدْ كنْتِ يَوْماً لَنَا نُورًا نُقدِّسُهُ

ذهب الضِّياءُ وزَيْتُ الفِكرِ قَدْ نَضُبَا

أول ما يتألم له الشاعر بعد هذه الحرب هو شعر بغداد الذى يُعد عنوان ثقافتها فالشاعر يحزن لانقطاعه عن الأمة العربية نظرًا لتأثر حركة التواصل بين الثقافة العراقية وغيرها من الثقافات بتلك الحرب التى عزلت العراق عن العالم .

كما يوضح الشاعر أن ما يصلنا من شعر عراقى فى ذلك الوقت قد أفرغ من محتواه وأصبح لا يحمل سوى معانى وأسلوب خطب الحروب والمعارك ثم يتألم الشاعر لحال نهر دجلة الذى يراه مستمراً فى جريانه بعيداً عن شاطئيه ومجافياً لهما وكأنه قد أصبح غريباً عنهما .

---

(١) ديوان " ضيعت عمرى فى الرحيل " – عبد العزيز جويدة ص ١٢٠ ، والأبيات من بحر البسيط التام .

(٢) مختضبًا : خضب الشىء غيَّر لونه بحمرة [لسان العرب ١ / ٣٥٧] .

كذلك نهر الفرات الذى أصبح ماؤه مخضباً بدماء القتلى ، وعلى شاطئيه تفوح رائحتهم ، ثم يؤكد الشاعر خفوت نور المدينة وضياع ثقافتها، ورأيناه يتذكر ماضيها المشرق حين عمت ثقافتها الدنيا ونهلت منها الشعوب ، ولا شك أن زادت هذه الذكرى من آلام الشاعر وأساه .

ومن أكثر الشعراء رثاءً لبغداد وحزنًا لما حل بها الشاعر "أحمد عبد المعطى حجازى " ، ومن ذلك ما جاء فى قصيدته " بغداد والموت " قوله [١] :

بغدادُ دَرْبٌ صامِتٌ وَقُبَّةٌ عَلَى ضَرِيحْ

ذبابةٌ فى الصَّيْفِ لا يَهُزُهَا تَيَّارُ رِيْحْ

نهرٌ مَضَتْ عَلَيْهِ أَعْوامٌ طُوالٌ لَمْ يُفِضْ

وأُغْنياتٌ مُحْزِنَةْ.

الحزنُ فيهَا راكدٌ لا يَنْتَفِضْ

وَمَيِّتٌ ، هَيْكَلُ إنسانٍ قَدِيمْ

بدت بغداد فى عين الشاعر فى صورة كئيبة قاتمة مستمدة من الظروف السياسية التى كانت تعانيها العراق ، فأهم ما يراه الشاعر فيها صمت المكان وكأنها قبة بنيت على قبور ، ثم هو يراها ذبابة صيف متثاقلة لا تهزها الرياح حتى مياه نهرها راكدة لا تتحرك ولا تفيض ، وقد بدا تحول الشاعر من الرثاء إلى

(١) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٩٠ ، والقصيدة من شعر التفعيلة الذى جاء على تفعيلة الرجز " مستفعلن " .

الهجاء كمن يجلد ظهره من شدة حزنه وحسرته على الحال التى تحياها المدينة .

ويسمع الشاعر أغنيات بغداد حزينة لحزن المدينة الذى يتوالى ولا ينقطع كما يرى كل شيء فى المدينة ساكناً متثاقلاً وكأنه جسد إنسان ميت ، وليس غريبًا أن تكون صورة المدينة مرآة لحياة العراق كلها ، ففيها تقع الأحداث المؤثرة ، وقد مرت ببغداد – فى العصر الحديث – أحداث كثيرة ملأت حياتها ألمًا وحزنًا وغيرت من وجهها السياسى والثقافى ، فكان للشعراء بها نوع من الارتباط ، وكان أكثر توجه أشعارهم إلى غرض الرثاء الذى وجدوا فيه التعبير عن آلامهم حزنًا لحال المدينة العريقة .

المبحث الرابع
بغداد .. الحب والحنين

لقد عرف العربى حب الوطن والحنين إليه منذ أقدم الأزمان ، فحمل لنا الشعر العربى صورًا رائعة من أشواق الشعراء وحنينهم إلى أوطانهم ومرابعهم ومراتع صباهم فينـدر أن تجد قصيدة عربية إلا وبها حنين إلى الوطن أو ذكر المنازل والديار ، ولا غرو فى ذلك فالأرض قطعة من الإنسان لا يستطيع نسيانها متى حل أو رحل .

وفى كثير من مناحى الحياة والأنشطة الإنسانية كانت المدن العربية – وما تزال – تعانى من أجل حياة أفضل للأمة العربية ، وقد تطورت هذه المعاناة فى كثير من الحواضر إلى حد الألم والأنين بسبب البيئة أو المجتمع أو الظروف السياسية .

أما بغداد فهي أكبر مدن العراق التى كتب الله لها أن تقارع الأحداث وتقاوم الزمن على مرّ العصور ، ولعل ذلك كان السبب فى كونها محطّ عشق الشعراء وحنينهم .

ومن أكثر الشعراء هيامًا ببغداد وشوقًا لها الشاعر " عبده بدوى " ومن ذلك ما جاء فى قصيدته " بغداد " قوله [1] :

نسيتُ نفسى – ففى نفسى وفى فَرَحِى
أنِّـــى بأرضِـــكِ قـــد أيْنَعْـــتُ إِينَاعَـــا
فكيـفَ تجـذبُ رُوحـى فـى غـدٍ مِحَـنٌ

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوى ٢ / ١٦٦ ، والأبيات من بحر البسيط التام .

وطـــائراتٌ تجـــوبُ الأفْـــقَ إقْلاعَـــا

وددتُ لـــو أنَّنِـــى شـــمسٌ علـــى أُفـــقٍ

لكى أُضِيءَ الدُّجَى ، والسَّهْلَ ، والقاعَا

وددتُ لـــو أننـــى شِـــعْرٌ علـــى وتـــرٍ

كيْمَـــا أضـــيفُ إلـــى الإيقـــاعِ إيقَاعَـــا

وددتُ لـــو أننـــى فـــى الكـــفِّ مروحـــةٌ

تهـــزُّ هَـــدْبَكِ ، مـــا اسْـــطاعتْ ، ومـــا

وددتُ لـــو أن كـــلَّ النُّـــور أســـورةٌ

تحـــيطُ أرضـــكِ أهـــوارًا وأصْـــقَاعَا [1]

يذكر الشاعر أنه حين يكون فى بغداد ينسى الدنيا وأحداثها التى تتجاذبه ، ولا يذكر إلا شيئًا واحدًا هو تلك السعادة التى تغمره والنضارة والإشراق وصفات الجمال التى تعلوه حينما يكون فى أرض بغداد ، ثم يذكر الشاعر المحن والخطوب والحروب التى تمر على المدينة فيتمنى لو يكون شمسًا تضىء أفقها ، أو يكون نغمًا عذبًا يتردد فى أرجائها ، أو يكون مروحة تلطف أجواءها وتهز أهدابها ، ثم يتمنى أن يتجمع كل نور الدنيا ليكون أسورة تحيط أرضها ، ولاشك أنها عاطفة

(١) أهوارًا : جمع هور ، والهور البحيرة تغيض بها مياه وآجام فتتسع . [القاموس المحيط ١٦١/٢] . وأصقاعًا : جمع صقع ، والصقع الناحية . [المعجم الوجيز ص ٣٦٧ – مجمع اللغة العربية – طبعة الهيئة المصرية العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م] .

صادقة من الشاعر تجاه مدينة بغداد حدت به إلى هذه الأمنيات الصادقة التى عبَّرت عن هذه العاطفة أفضل تعبير .

وقد استبد عشق المدينة والحنين إليها بالشاعر فرآها فى أحلامه ، حتى لنجده يصف ذلك فى قصيدته " بغداد فى حلم " ، وفيها يقول [١] :

ثـــم أغرقـــتُ فـــى الضـــياء جفُـــونى
وتجـــــاوزتُ منزلـــــى وطيُوبَـــــه
ثـــم أطلقـــتُ أمنيـــاتى الحَيَـــارى
نَحْـــوَ دار الســـلام .. نحـــوَ الحبيبـــه
لـــــم أزَل ســـــائرًا أدقُّ جنـــــاحى
فَـــوْقَ قلـــبٍ وفرحـــةٍ مشـــبُوبه
ومعـــى الـــوردُ وهـــو يَشْـــربُ ضـــوءًا
مـــن أبـــاريقِ ليلـــةٍ مصْـــبوبهْ !
ومعـــى الحـــبُّ : وهـــو يبـــذرُ هَمْسًـــا
وظـــــلالاً ، ومـــــرةً تقطيبـــــه
ومعـــى النَّخـــل : وهـــو يَغْـــزلُ صـــوتًا
مـــن بعيـــدٍ .. كشـــهقةٍ مسْـــحوبه

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوى ١ / ٣٢٢ ، والأبيات من بحر الخفيف التام .

عقد الشاعر جفونه وكان نومًا عميقًا ، وإذا ببغداد تتمثل دور البطولة فى حلم الشاعر الذى أغرق جفونه فى ضياء المدينة التى طار فى أحلامه متجهًا إليها فهى دار السلام وهى الحبيبة ، ولا يزال الشاعر فى حلمه يطير بجناحيه نحو بغداد تغمر قلبه فرحة كبيرة ، ومعه الورود النضرة، والحب العارم ، والنخل المترنح وهى أهم مشاهد المدينة التى علقت بذهن الشاعر وتمثلت له ، فصحبها وهو فى طريقه إليها ، فإذا وصل إلى مبتغاه وجدناه يقول [1] :

فـــإذا بـــى أقَاسِـــمُ الفجـــرَ كأسِـــى

وأرى قَلْـــــبْ دجلـــــة وَوَجِيبَـــــه [2]

وإذا الحـــــبُّ بيتُنَـــــا واللَّيـــــالى

دَوْحـــةُ الطيـــر ، والأمـــانى الطروبَـــه

وإذا الله فـــــى المـــــآذن نـــــورٌ

والسَّـــماواتُ مـــن يَـــدَيْنَا قريبَـــه !

فبعد أن واصل الشاعر الطيران بجناحى الحنين – عبر هذا الحلم – وصل إلى مدينة بغداد فإذا هو نشوان يقتسم مع الفجر الفرحة والإشراق ثم يستقبل أول مشاهد المدينة وهو نهر دجلة بجماله وروعته ، وإذا بالشاعر ينوى الاستقرار فى المدينة المعشوقة متخذًا من حبه لها بيتًا، ومن لياليه دوحة للطير ، ثم هو يرى المآذن فى المدينة تعلو بذكر الله عز وجل فيحس الشاعر بالقرب وكأن السماء

(١) القصيدة نفسها ١ / ٣٢٤ .

(٢) وجيبه : وجب القلب وجْبًا ووجيبًا خفق واضطرب . [لسان العرب ١ / ٧٩٣] .

قريبة من يديه بفضل قربه من مدينته المحبوبة ، ولو كان ذلك كله فى حلم نائم .

ومن أكثر الشعراء المصريين عشقًا وحنينًا لبغداد هو الدكتور " زكى مبارك " ، بعد أن قضى بها سنوات للتدريس فى مدارسها ، فكان بينه وبينها تلك المشاعر الجميلة التى عبَّر عنها فى كتابه " وحى بغداد " ، كما عبَّر عن ذلك شعرًا ، ومن ذلك ما جاء فى قصيدته" من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد "، وفيها قوله(١) :

عشــقتُ شــقَائِى فيــكِ للحــبِّ إنَّنــى
أُحِــبُّ شَــقَائِى فــى رِحَــابِ أَحِبَّــائِى
أبغــدادُ هــل تَــدْرِين أَنِّــى مُــودِّعٌ
وأن سَــمُومَ البــينِ تلفــحُ أَحْشَــائِى

إلى أن يقول حين يفارق بغداد أيضًا :

لحبــكِ يــا بغــداد والحــبُّ أهــوجٌ
رأيــتُ فنــائى فيــكِ مَشــرِقَ إحيــاءِ

أبغــدادُ هــذا آخــرُ العهــدِ فــاذكُرِى
مــدامعَ مفطــورٍعلَى الحــبِّ بكَّــاءِ
أبغــدادُ يضــنينى فراقُــكِ فــاذكُرِى

(١) وحى بغداد – د / زكى مبارك ص ١٤ ، ١٥ ، والأبيات من بحر الطويل .

لـدَى ذِمَّـةِ التـاريخِ بينـى وإضْـنَائِى

خلعـتُ عَلَـى الـدنيَا جمالـكِ فانثنـتْ

تُخايِـلُ فـى طيـبٍ وحُسْـنٍ ولألاءِ

سيسـألُ قـومٌ مـن زكـىّ مبـارك

وجسـمِى مـدفونٌ بصـحراءَ صَـمَّاءِ

فـإن سـألوا عنـى ففـى مِصْـرَ مرقـدى

وفـوق ثـرى بَغْـدَادَ تمـرحُ أَهْـوَائِى

أوضح " زكى مبارك " أنه سافر إلى بغداد بعد أن عانى بعض الأحقاد وضيق العيش فى مصر ، وها هو ذا – فى هذه الأبيات – يخاطب بغداد مؤكدًا أنه قدم إليها بعد وداع القاهرة وأن هذه الفرقة تكاد تفتك به شوقًا وحنينًا إلى وطنه .

ويبدو أن الشاعر حين أقام ببغداد أحب المدينة وعشقها ، ولقى من أهلها من الخير ما جعله يحزن كل الحزن عند مجىء وقت الفراق للعودة إلى وطنه .

ويبين الشاعر أنه أحبَّ المدينة إلى حدّ أن يرى حياته فى فنائه فيها وانصهاره بين أهلها، ثم هو يخاطب المدينة مذكِّرًا أنه جاء وقت رحيله عنها وعودته إلى مصر ، وبقدر فرحه بالعودة إلى وطنه بقدر ألمه وحزنه الذى يدمع عينه ويضنى قلبه لفراق بغداد الجميلة التى كان دائمًا ما يراها تضىء جمالاً وبهاء ، ويوضح الشاعر أنه وإن عاد إلى القاهرة وطنه الذى سيضم جسده بعد وفاته إلا أنه ترك هواه وذكرياته تمرح على ثرى بغداد الحبيبة .

وممن عشق بغداد وهام بحبها فى غير قصيدة من شعره " محمود حسن

إسماعيل " ، ومن ذلك قوله فى قصيدته " بغداد " [١] :

لو أننى ، ملاَّحُ بحْرٍ ، ألحدت تحتَ الدُّجَى رياحُهُ
وأصبحت قلوعه جنائزَ ، شُلَّتْ بها جِراحُهُ
وذقتُ رشفتَيْنِ ، من دِجْلَتِهَا المُطَهَّرْ .. ،
وذبتُ قطرتينِ ، فى مِسَابِهِ المُعَطَّرْ [٢]
لاندلعتْ سفينتى تمخُرُ فى الغياهِبِ المدَثَّرَهْ [٣]
تطوى مَعِى تيهَ القرونِ ؛ لو أرادتْ نظرتى أن تعبُرَهْ ..

قدم الشاعر عدة أفعال شرط فى معنى المستقبل الذى أفادها معنى التمنى ثم جاء بجواب الشرط متأخرًا ، فهو يفترض لو كان ملاَّحاً وقد اعترضته الرياح فى الظلام ، وكذلك قلوع سفينته التى انقلبت عليه وأوسعت جراحه ، كما أنه يفترض لو أنه ذاق رشفتين من دجلة بغداد الطاهر ، أو أنه يذوب كقطرتين فى مائه العذب ، فلو كان الحال كذلك – وعلى هذه الافتراضات – لواصلت سفينته السير إلى مدينته المحبوبة مهما بلغت الصعاب التى يراها ستذعن له يومًا وتساعده فى وصول سفينته إلى مبتغاها ، وغير خفية دلالة ذلك على مدى شوق الشاعر وعشقه للمدينة الحبيبة .

أما الشاعر " على الجارم " فقد مزج بين عشقه للمدينة وتعلق قلبه بها

---

(١) الأعمال الكاملة – الشاعر/ محمود حسن إسماعيل ٢/ ١٣١٦ ، والقصيدة من شعر التفعيلة التفعيلة "مستفعلن"

(٢) مسابه :بتخفيف الهمزة أصلها مِسأبه ،وهو وعاء يجعل فيه العسل .[لسان العرب ١ / ٤٥٥] .

(٣) الغياهب : جمع غيهب وهو الظلمة . [لسان العرب ١ / ٦٥٣] . والمدثرة : المنسية والماحى ذكرها.[ينظر : لسان العرب ٤ / ٢٧٦] .

وبمشاهدها ، وبين نظير هذه المشاهد فى وطنه مصر وبلدته رشيد ، ولاشك أن هذا المزج وهذه المزاوجة التى تفرَّد بها " على الجارم " كان لها بالغ التعبير عن حبه للمدينة ، ومن ذلك قوله مخاطبًا بغداد (١) :

مَـــــرْآكِ عِيـــــدٌ لِلْمُنَـــــى
فُزْنَـــا بِـــهِ فـــي يَـــوْمِ عِيـــدِ
أَهْلُـــــــــوكِ أَهْلُونَـــــــــا ،
وَأَبْنَـــــاءُ الْعَشِـــيرةِ وَالْجُـــدُودِ
بَـــــيْنَ الْقُلُـــــوبِ تَشَـــــوُّقٌ
كَتَشَـــــوُّقِ الصـــــبِّ الْعَمِيـــــدِ
حَتَّـــى يَكَـــادُ يُحِـــبُّ نَخلَـــكِ
نَخْـــلُ أَهْلِـــي فـــي " رَشِـــيدِ "
شَـــــطَّتْ مَنَازِلُنَـــــا ، وَمَـــــا
احْتَـــاجَ الْفُـــؤَادُ إِلَـــى بَرِيـــدِ (٢)
الرَافِـــــــــدَانِ تَمَازَجَـــــــــا
فـــي الْحُـــبِّ بِالنِّيـــل الســـعِيدِ
وَتَعَـــــانَقَ الظـــــلاَّنِ : ظِـــــلٌّ

(١) قصيدة " بغداد " ديوان على الجارم ١ / ١٩٢ ، والأبيات من بحر الكامل المجزوء .
(٢) شطَّت : بعدت وكل بعيد شاط . [لسان العرب ٧ / ٣٣٣] .

الطَّـــارقِ وَالْهَـــرَمِ الْمَشِـــيدِ (١)

إلى أن يقول :

جِئْنَـــــاكِ نَسْـــــتَبِقُ الْخُطَـــــا

أَنْضَـــــاءَ أَوْدِيَـــــةٍ وَبِيـــــدِ (٢)

وَسَـــــفِينَتِي " نَـــــرْنٌ " بِهَـــــا

مَـــا فـــي فُـــؤَادِي مِـــنْ وَقُـــودِ (٣)

على أثر زيارة الشاعر للمدينة أنشد هذه القصيدة بعنوان:" بغداد " ، وهو فيها يقرر أن يوم رؤيتها يوم عيد ، ولا أدل من ذلك على حبه للمدينة ، ثم هو يذكر ذلك الحب المتبادل بين أهل مصر وأهل العراق ، وما بين القلوب من تشوق متبادل كتشوق المحب المستهام إلى حد انتقال هذا الحب ليكون بين نخل بغداد ونخل بلدة الشاعر " رشيد " ، وكذلك بين منازل البلدين ، وبين النيل ودجلة والفرات ، وكذلك بين إيوان كسرى – وهو على مسافة غير بعيدة من بغداد – وبين الأهرامات فى مصر .

(١) الطاق: إيوان كسرى وهو على مسافة غير بعيدة من بغداد .[هامش ديوان على الجارم ١٩٣/١]

(٢) أنضاء : جمع نِضْو وهو الذى أتعبه وهزله السفر . [لسان العرب ١٥ / ٣٢٩] .

(٣) نرن : اسم شركة أجنبية تملك السيارات الكبيرة التى تغدو وتروح فى تلك الصحراء بين دمشق وبغداد . [هامش ديوان على الجارم ١ / ١٩٣] .

ثم يؤكد الشاعر أنه جاء إلى بغداد يسابق الخُطا حتى أضناه السفر وأتعبه وهو يصف قَطْعِه الصحراء بتلك السيارة التى تسمى " نرن " والتى من فرط حبه يجعل من دمه وقودًا يقوى سيرها لتقله إلى بغداد الحبيبة .

المبحث الخامس
بغداد ..الطبيعة والجمال

لم يكن لشاعر يصف بغداد أن يغفل الحديث عن مظاهر طبيعتها لاسيما دجلة والفرات ، ونخيل المدينة وأعنابها ، وإشراق شمسها وضيائها ، تلك هي أهم مظاهر طبيعة المدينة الواردة في الشعر، ولكن يمكن القول إن الشعر الحديث حين أفاض الوصف في معاني تاريخ بغداد وحضارتها وخلافتها نجده لم يفض في الحديث عن وصف طبيعتها ، حتى لنجد أكثر الشعراء لم يعمد إلى وصف مظاهر طبيعة بغداد وإنما جاء ذلك عرضاً للتوصل إلى أغراض شعرية أخرى .

ويعد " محمود حسن إسماعيل " في قصيدته " بغداد " من أكثر الشعراء حديثاً عن طبيعتها ، ومما جاء فيها قوله [1] :

وذُقْـــــتُ رشـــــفتيْنِ مـــن دِجْلَتِهَـــا المُطَهَّـــرْ
وذُبْـــــتُ قطـــــرتيْنِ فـــي مســـارِهِ المُعَطَّـــرْ

ويبدو أن دجلة العراق هو أول مؤثرات طبيعتها على الشاعر ، حيث أفاض في وصفه ، يقول في مقطع آخر من القصيدة مؤكداً تأثره بنهر دجلة[2]:

فنهرُهَـــــا مـــــلأَحْ فـــي لُجَّـــةِ الحَيَـــاهْ [3]
فـــي كَفِّـــهِ مِصْـــبَاحْ عـــبَّ الـــدجى سَـــنَاهْ

(١) الأعمال الكاملة – محمود حسن إسماعيل ٢ / ١٣١٦ ، والبيتان من بحر الرجز المجزوء.
(٢) القصيدة نفسها ص ١٣١٧ ، والأبيات من بحر المجتث .
(٣) لُجَّة : ظلمة . [لسان العرب ٢ / ٣٥٣] .

ودفَّـــــــةُ الريـــــــاحْ تجـــــرِي عَلَـــــى مَـــــدَاهْ
والعاصـــــفُ المُجْتَـــــاحْ يغـــــدو لَـــــهُ صَـــــلاَهْ

فالشاعر يرى نهر دجلة ملاًّحا يبحر في ظلمة المدينة يحمل لها الخير والنور والضياء ، وفي الوقت نفسه يراه رمزاً للقوة والسيطرة وهو يسير غير عابئ بما قد يتعرض له من رياح أو يكتنفه من عواصف يطوعها جميعاً فتدين له وتكون في خدمته .

كما تعرض " محمود حسن إسماعيل " في قصيدة أخرى عن المدينة إلى نخيلها أحد مظاهر طبيعتها ، يقول [١] :

ولَـمْ أَزَلْ أَصْـغَى ، ويَصْـغَى فِـي دَمِـي تَبَتُّـلُ النَّخِيـل
كأنَّـــهُ مِسْـــبَحَةٌ تعـــدُّ فِـــي تاريخِهَـــا الطَّويـــل

فهو يرى ويسمع النخيل مسبحاً لله عز وجل ومتبتلاً عبر تاريخ المدينة ويرى لهذه الصورة الرائعة أثراً في دمه وتكوينه الشخصي .

ثم ينادي الشاعر على بغداد مهتماً بخصوبة أرضها وسعة خيرها وإشراقه شمسها ولا شك أن هذه الأوصاف من مظاهر طبيعتها ، يقول [٢] :

يـــا كرمـــةً عـــبَّ سُـــقَاةُ النُّـــورِ مـــن أَعْنَابهَـــا [٣]
يـــا قِبْلَـــةً للشـــمسِ تســـتيقظُ مـــن أهـــدابِهَا

(١) القصيدة نفسها ص ١٣٢٠ .
(٢) القصيدة نفسها ص ١٣٢١ .
(٣) عبَّ : شرب وتجرع . [لسان العرب ١ / ٥٧٢] .

يـــا زادَ كـــلِّ وقفـــةٍ يكبِّـــر التـــاريخُ فـــي ترابِهَـــا

ومن أكثر الشعراء اهتماماً بطبيعة بغداد " زكي مبارك " لاسيما في أشعاره التي وردت في كتابه " وحي بغداد " والذي ساق فيه عدة صور وجدانية وأدبية واجتماعية عايشها في مدينة بغداد التي أقام فيها سنوات للعمل في جامعتها ، وقد بدا اهتمامه بوصف طبيعة المدينة في خطابه نهر دجلة في ثلاثة مقاطع بلغت اثنين وأربعين بيتاً من قصيدته المطولة " من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد " والتي يشكو فيها غربته وحاله في البعد عن وطنه ، ومن ذلك قوله [1] :

أَدِجْلَـــةَ ســـاقَتْنِي إِليـــكَ مَقَـــادرُ

تـأَنَّقْنَ فـي كَيْـدِي وأَبْـدَعْنَ إِيـذَائِي

أَدِجْلَـــةَ أَبْلاَنِـــي اغْتَرَابِـــي وشـــفَّني

هيـامِي بظُلْمِـي فـي بِـلاَدِي وإِشْـقَائِي

أَدِجْلَـــةَ واســـينِي فللضَـــيْفِ حقُّـــهُ

إِذَا شِـئْتَ مـن زادٍ وحـبٍّ وصَـهْبَاءِ

طغَـى موجُـكَ الصـخَّابُ فاهتـاجَ لـوعَتِي

وأيقـــظَ أشْـــجَانِي وبَلْبَـــلَ أهْـــوَائِي

(١) وحي بغداد – د / زكي مبارك ص ١٠ – والأبيات من بحر الطويل .

فالشاعر يرى في نهر دجلة ملجأً مواسيًا في محنته وآلامه في غربته ويرى فيه مضيفاً كريماً فيطلب حق الضيف من كرم وجوار ، ويراه رمزاً للقوة الطاغية إذا ثارت تثور معها أشجانه .

وإن كان زكي مبارك لم يطل في وصف مظاهر طبيعة بغداد إلا أن مخاطبته هذه المظاهر لا شك أنه اعتداد واهتمام بطبيعة المدينة وجمالها ، ومما يؤكد هذا قوله في القصيدة نفسها [١] :

أُحِبُّكَ يا رَبِّي فَهَلْ أَنْتَ شَافِعي

إِلَى سرحَةٍ في شطِّ دِجْلَةَ زَهْرَاءِ

ومن أنتَ يا رَبِّي ؟ أجِبْنِي فإنَّنِي

رأيتُكَ بينَ الحُسْنِ والزَّهْرِ والمَاءِ

أنَا الفاتنُ المفتونُ فارحَمْ بليَّتِي

وقَدِّر بأرْجَاءِ الفَرَادِيسِ إثْوَائِي [٢]

وبعيدًا عما يتبدى في الأبيات من ضعف ووهن في نزعة الشاعر الدينية[٣] ، يبدو من الأبيات أيضاً اهتمامه بنهر دجلة مظهراً طبعياً للمدينة ، وكذلك ما يراه

(١) القصيدة نفسها ص ١١ .

(٢) إثوائى : طول مقامى . [لسان العرب ١٤ / ١٢٥] .

(٣)ويرجع ذلك عنده إلى تغليب جانب الفن والأدب على المعاني التي يقتضيها الدين ، وأكثر ما يتبدى ذلك عنده في بعض الأشعار التي يخاطب فيها الله عز وجل مثل الأبيات المذكورة ، و يبدو ذلك أيضاً في كتابات زكي مبارك الذاتية . [ينظر : سيرة حياة الدكتور زكي مبارك – إعداد / كريمة زكي مبارك ص ١٤ وصفحات أخرى متفرقة – طبعة مكتبة مصر ١٩٩٥م]

من حسن الطبيعة بين الزهر والماء لاسيما على جانبي النهر الطاهر .

أما " علي الجارم " في قصيدته " بغداد " فقد تحدث عن تلك المظاهر ولكن عرضاً في حديثه عن تآخي الشعبين المصري والعراقي ، يقول [1] :

بغـــــدادُ أشْـــــرَقَ نَجْمُهَـــــا

وبَـــدَا بِهَـــا ســـعدُ الســـعُودِ

حتى يقول :

أهْلُـــــــــوكِ أهلُونَـــــــــا

وأبنَـــــاءُ العشـــــيرةِ والجُـــــدودِ

حتـــــى يكـــــادُ يحـــــبُّ نخلَـــــكِ

نخـــــلُ أهلِـــــي فـــــي رشـــــيدِ

الرافِـــــــــدانِ تَمَازَجَـــــــــا

فـــــي الحُـــــبِّ بالنَّيْـــــلِ السَّـــــعِيدِ

وقد ألقى الشاعر قصيدته في زيارته لبغداد ضمن وفد مصر لحضور أحد المؤتمرات ، ولعل ذلك كان سبباً في ميل القصيدة إلى معاني المؤاخاة بين الشعبين ، حتى ليحب نخل رشيد – بلد الشاعر – نخل بغداد ، وكذلك الرافدان دجلة والفرات يراهما الشاعر وقد امتزجا في الحب بنيل مصر السعيد ، ولا شك أنها صورة متبادلة للجمال .

(١) ديوان علي الجارم ١ / ١٩٢ ، والأبيات من بحر الكامل المجزوء .

المبحث السادس
بغداد .. الثقافة والآداب

أما عن ثقافة بغداد في الشعر المصري فتمثلت في حديث الشعراء عن أدباء بغداد وعلمائها ومنتدياتهم الأدبية والعلمية ، وكذلك ذكر بعض الشخصيات الثقافية والأدبية ، ومن ذلك قول الشاعر" محمود غنيم " عن ثقافة المدينة في قصيدته " بغداد " يقول مخاطباً إياها (١) :

الغَـرْبُ يَعْـرِفُ مَـا أَدّى بَنُـوكِ لَـهُ

الكُتْـبُ تَنْطِـقُ والأَقْـلاَمُ شُـهَّادُ

إلى أن يقول عن خلفاء بني العباس :

لَـمْ أَدْرِ كَـانُوا مُلُوكـاً أَمْ فَلاسِـفَةً

عَلَيْهُمُـو مِـنْ نَسِـيجِ العِلْـمِ أَبْـرَادُ (٢)

العِلْـمُ حِلْيَـتُهُم ، مَـا مِنْهُمُـو مَلِـكٌ

إلاَّ فَقِيـهٌ ، وَنَحْـوِيٌّ ، وَنَقَّـادُ

يشير الشاعر إلى فضل مدينة بغداد في رعايتها وحفظها للحركة العلمية والكتب والمدونات العربية في جميع العلوم والفنون ، وقد ثبت اتخاذ الغرب لهذه المعارف العربية مطية لعلومهم وثقافتهم الحديثة ، ثم يذكر الشاعر خلفاء بني

(١) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ / ٦٧١ – والأبيات من بحر البسيط التام .

(٢) أبراد : جمع بُرد وهو ثوب فيه خطوط وخص بعضهم الوشى . [لسان العرب ٣/ ٨٢] .

العباس ورعايتهم للعلم والثقافة إلى حد أنه لا يدري هل كانوا ملوكاً أم فلاسفة ؟ فالعلم والثقافة والفن هي السمات الغالبة عليهم إذ كان منهم الأديب والنحوي والفقيه والناقد .

ثم يستمر الشاعر في حديثه عن ثقافة بغداد ، يقول [1] :

الشـــعرُ أنْـــتِ التـــي عَلَّمْـــتِ وَازِنَـــهُ

أنَّ القَـــــوَافِيَ أَسْـــــبَابٌ وَأَوْتَـــــادُ

دَوَّنْـتِ مَـا نَظَـمَ الأَسْـلافُ مِـنْ دُرَرٍ

لَـــوْلاَكِ بَـــادَتْ غَوَالِيهَـــا كَمَـــا بَـــادُوا

كَـمْ مـن مَعَـارِفَ قَـدْ أَحْيَيْـتِ دَائِرَهَـا

وَكَـــمْ لعِلْـــمٍ جَدِيـــدٍ فِيـــكِ مِـــيلاَدُ

لَـوْلاَكِ مَـا كَـانَ لِلْفُصْـحَى مَـذَاهِبُهَا

ولِلْحَـــــدِيثِ رِوَايَـــــاتٌ وَإِسْـــــنَادُ

بغـدادُ حَسْـبُكِ مِـنْ دُنْيَـاكِ أَرْبَعَـةً

هُـــمْ فـــي الشَّـــرِيعَةِ للأَجْيَـــالِ رُوَّادُ

يشير الشاعر في البيت الأول إلى الخليل بن أحمد حين قرر وضع علم العروض تأصيلاً لقرض الشعر العربي أثناء سيره في أحد أسواق المدينة ، ويعد الشاعر ذلك ريادة لثقافة بغداد .

(١) القصيدة نفسها ص ٦٧٢ .

وفي البيت الثاني يشير إلى حركة العلوم والترجمة لعلوم القدماء في عصر العباسيين ، ثم يتحدث الشاعر في بقية الأبيات عن أربعة محاور ثقافية هي جمع المعارف ، والعلم الجديد ، واللغة الفصحى ، وعلم رواية الحديث الشريف ، ويقرر الشاعر أن حسب بغداد من دنياها ريادتها لهذه المحاور الثقافية الأربعة التي تمجد ذكراها عبر الأجيال .

ثم يتحدث "محمود غنيم " عن " دار الحكمة " [1] أهم معالم المدينة الثقافية، ثم عن ريادة بغداد الشعرية والفنية ، وأفرد لهذه المعاني الثقافية عدة أبيات ، يقول [2] :

وللثَّقَافَــةِ تَــأْلِيفٌ وَتَرْجَمَــةٌ

وللْغِنَــــاءِ مَزَامِيــــرٌ وَأَعْــــوَادُ

كَنْــزٌ مِــنَ الفِكْــرِ حَوَتْــهُ دَارُ

تُحْصِــي النُّجُــومُ وَلاَ يُحْصِــيهِ تَعْـدَادُ

كَنْزٌ مِنَ الفِكْرِ فِيهِ كُلُّ مُبْتَكَرٍ

أَمْــلاَهُ ذِهْـنٌ كَـوَمْضِ البَـرْقِ وَقَّــادُ

---

(١) دار الحكمة : مكتبة عظيمة أنشأها الخليفة المأمون ، وكانت بمثابة جامعة كبيرة يتصل بها بها معمل ومرصد ، واهتم الخليفة المأمون بأن يجمع فيها نفائس الكتب العربية والمترجمة ، وظلت تثمر كمكتبة عظيمة حتى مجيء التتار عام ٦٥٦ هـ . [ينظر : عصر المأمون – أحمد فريد الرفاعى ص ٣٧٩ – طبعة دار الكتب المصرية – الطبعة الرابعة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م] .

(٢) القصيدة نفسها ص ٦٧٢ .

يـا رُبَّ شِـعْرٍ عِرَاقِـيٍّ هَتَفْتُ بِـهِ

كَأَنَّـــهُ لِـــي فِـــي الأَسْـــحَارِ أَوْرَادُ

مَا زِلْتُ أَتْلُوهُ حَتَّى لَمْ يَعُدْ أَبَداً

بَيْنِـــي وَبَـــيْنَ الأُلَـــى قَـــالُوهُ أَبْعَـــادُ

الـــوَهْمُ مَـــثَّلَهُم لِـــي فِـــي

فَـــوْقَ الصَّـــحَائِفِ أَرْوَاحٌ وَأَجْسَـــادُ[1]

هَـذَا ابْـنُ هـانـي عَلَـى يُمْنَـايَ

وَعَـــنْ يَسَـــارِي بَشَّـــارٌ وَحَمَّـــادُ

يرى الشاعر في " دار الحكمة " وما تضم من كتب ومدونات كنزًا ثمينًا ، وحُق للشاعر فليس هناك أجل وأغلى من الكتب المتوقدة بالعلم وومضات الأذهان.

ثم ينتقل " محمود غنيم " إلى الشعر العراقي ويصور عشقه إياه وكثرة قراءته وقرب قائليه إلى قلبه إلى حد تصويرهم أرواحاً وأجساداً تتمثل فوق صفحات الكتب والدواوين ، فالشاعر حين يقرأ لشعراء بغداد يرى نفسه بين " أبي نواس " [2] عن يمينه و" بشار ابن برد " [1] عن يساره ، وأمامه " الراوية حمَّاد"[2] يروي

(١) مثَّلهم : مثَّل له الشيء صوَّره حتى كأنه ينظر إليه . [لسان العرب ١١ / ٦١٠] .

(٢) أبو نواس : (١٤٦ – ١٩٨ هـ / ٧٦٣ – ٨١٣ م) : الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمى ، شاعر العراق فى عصره ، ولد فى الأهواز من بلاد خوزستان ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس ، ومدح بعضهم ، وخرج إلى دمشق ومنها إلى مصر ، فمدح أميرها ، وعاد إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفى فيها . هو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية ، وقد نظم فى جميع أنواع الشعر . [معجم تراجم الشعراء الكبير – د / يحيى مراد ١ / ٦١] .

يروي عن بقية الشعراء .

وقريب من هذه المعاني أيضاً جاء حديث الشاعر " علي الجارم " في قصيدته "بغداد "، يقول [٣] :

بَغْـــــدَادُ يَـــــا دَارَ النُّهَـــــى
والفَـــنِّ ، يَـــا بَيْـــتَ القَصِـــيدِ
نبـــتَ القَـــرِيضُ عَلَـــى ضِـــفَا
فِـــكِ بَـــيْنَ أَفْنَـــانِ الـــوُرُودِ
يَشْـــــدُو كَـــــأَنَّ لُهَاتَـــــهُ
شُـــدَّتْ عَلَـــى أَوْتَـــارِ عُـــودِ [٤]
بَغْـــــدَادُ أَيْـــــنَ البُحْتُـــــرِيّ ؟
وَأَيْـــــنَ أَيْـــــنَ ابْـــــنُ الوَلِيـــــدِ

---

(١) بشار بن برد : (٩٥ – ١٦٧ هـ / ٧١٤ – ٧٨٤ م) : بشَّار بن برد العُقيلى ، بالولاء أبو معاذ : أشعر المولدين على الإطلاق . أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة "عقيلية" قيل إنها أعتقته من الرق ، وكان ضريرًا ، نشأ فى البصرة وقد بغداد ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، وشعره كثير متفرق ، من الطبقة الأولى . [ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ابن خلكان ١ / ٨٨] .

(٢) الراوية حماد : (٩٥ – ١٥٥ هـ / ٧١٤ – ٧٧٢ م) : حماد بن سابور بن المبارك ، أبو القاسم: أول من لقب بالراوية ، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، أصله من الديلم ، ومولده فى الكوفة ، جال فى البادية ورحل إلى الشام وهو الذى جمع السبع الطوال (المعلقات) ، أخباره كثيرة ، وتوفى فى بغداد . [الأعلام ٢ / ٢٧١] .

(٣) ديوان علي الجارم ١ / ١٨٨ – ١٩٢ – والأبيات من بحرالكامل المجزوء .

(٤) لهاته : اللهاة من كل ذى حلق اللحمة المشرفة على الحلق [لسان العرب ١٥ / ٢٥٨] .

وَمَجَـــالِسُ الشُّـــعَرَاءِ فِـــي

بَيْـــتِ ابْـــنِ يَحْيَـــى والرَّشِـــيدِ

إلى أن يقول :

جِئْنَـــا نُحَـــيِّ العِلْـــمَ وال

آدَابَ فِـــي العَـــدَدِ العَدِيـــدِ

مَـــرآكِ عِيـــدٌ للمُنَـــى

فُزْنَـــا بِـــهِ فِـــي يَـــوْمِ عِيـــدِ

ولعل هذه الأبيات لعلي الجارم قد ضمَّت جميع المحاور التي أبرزتها قصائد الشعراء في حديثهم عن ثقافة المدن العربية ، فقد جعل الشاعر من بغداد مدينة العقول والفنون وعلى رأسها فن الشعر الذي نبت على ضفاف نهريها وبين أغصان الورود ، وكان السمة المهيمنة على مجالس الخلفاء والأمراء ، وهي أيضاً مدينة العلم التي يعد الشاعر يوم زيارتها ورؤياها عيدًا فاز به .

أما عن الشخصيات الثقافية التي ذكرها فتتمثل في الشاعر "البحتري " وقد ولد بالقرب من الفرات وعُدَّ من أشهر شعراء المدينة ، ثم الأمير "الفضل بن يحيي البرمكي" [1] ، والخليفة " الرشيد " وقد عرفا برعايتهما لمجالس الشعر والأدب ، وليس ثمة شك في تأثير ذلك على ثقافة بغداد .

(١) الفضل بن يحيى البرمكى : (١٤٧ - ١٩٣ هـ / ٧٦٥ - ٨٠٨ م): الفضل بن يحى بن خالد البرمكى : وزير الرشيد العباسى ، وأخوه فى الرضاع . كان من أجود الناس . استوزره الرشيد مدة قصيرة ، ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨ هـ فحسنت فيها سيرته ، وأقام إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة (سنة ١٨٧ هـ) . وتوفى الفضل فى سجنه بالرقة . [الأعلام ٥ / ١٥١] .

أما الشاعر " عبده بدوي " في قصيدته " بغداد في حلم " فقد اقتصرت رؤيته لثقافة المدينة في حلم نومه على ذكره لأهم ألوان آدابها وهو الشعر ، يقول: [1]

ثُـــمَّ سِـــرْنَا نَـــدُقُّ بَابـــاً فَبَابَـــا
فـــي دُرُوبٍ مُمْتَـــدَّةٍ مَرْهُوبَـــه
كُـــلُّ حـــانٍ نَدُقُّـــهُ .. يَتَلَقَّـــى
سَـــمْعُنَا مِنْـــهُ : شِـــعْرَهُ وطَيُوبَـــه

إلى أن يقول :

وإذَا الفَجْـــرُ والنَّخِيـــلُ صَـــرِيعُ
و" أَبُـــو نُـــوَاسٍ " يُعَـــاوِدُ كُوبَـــهُ
أَسْـــكَرَ النُّـــورَ والحَيَـــاةَ بكـــأس
وإذا الشَّـــمْسُ كأسُـــهُ المَصْـــبُوبَه

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوي ١/ ٣٢٥ – ٣٢٦ والأبيات من بحر الخفيف التام .

فيما يرى النائم يصور الشاعر بغداد ودروبها الممتدة وحاناتها المزدحمة بمجالس الشعر ، لاسيما شعر المجون في ليل المدينة وفي طليعة شعرائه يرى " أبا نواس " ينشد شعره الماجن فيسكر النور والحياة .

وكما كان " الرشيد " هو أهم الشخصيات المستدعاة في الحديث عن تاريخ المدينة ، وضح أن " أبا نواس " هو أهم الشخصيات الأدبية المستدعاة في حديث الشعراء عن ثقافتها .

المبحث السابع
الدراسة الفنية

لا شك أن الناس يتفاوتون في اتجاهات العقل والشعور ودرجات التأثر الفني ، ومن ثم كان من الطبعى أن يتبع هذا التفاوت تفاوت في الأسلوب ، وحين يصدق هذا على الإنسان بعامة ، فإنه يصدق على الشاعر بطريق أولي .

وليس الشاعر إلا الأسلوب الذي هو مركب فني من عدة عناصر تؤلف صورة مؤتلفة من الفكر والشعور والذوق والخيال لتعبر هذه الصورة عن عناصر الأسلوب .

أولاً : الظواهر الأسلوبية

غير خفي أن النص الشعرى – قبل أى شيء – هو عمل إبداعى لا يمكن له أن يصل إلى غاية نفعية إلا عبر بوابة الأسلوب أو التشكيل الجمالى الخاص والمختلف الذى يميز التجربة ويمنح لها بهاءها ورونقها ، فلن يصبح للنص قيمة إبداعية إلا عن طريق بنية أسلوبية خاضعة لرؤى جمالية قادرة عبر التركيب والصياغات غير العادية على جذب المتلقى وجعله يسبح فى أجواء النص .

وتأسيساً على ذلك نستعرض بعض ظواهر أسلوب الشعراء الذين اتخذوا من الحواضر العربية لاسيما بغداد غرضاً وموضوعاً شعرياً ، ويكون الاختيار لتلك الظواهر الأسلوبية الأكثر وضوحًا فى أشعارهم لدورها البارز فى جلاء المعنى وإنتاج الدلالة وتكثيف البث الجمالى للتجربة الفنية .

أ - التكرار ودلالاته الفنية :

إن تكرار لفظة أو جملة بعينها يوحى بسيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر وشعوره، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة لأخرى(١)، وبذلك يأخذ المتلقى إلى أتون الحالة الشعرية أو على حد تعبير نازك الملائكة : " يضع فى أيدينا مفتاحًا للفكرة المتسلطة على الشاعر وهو بذلك أحد الأضواء اللاشعورية التى يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها " (٢) .

وقد وجد التكرار بكثرة فى شعر الحواضر العربية لاسيما ماكُتب عن مدينة بغداد ، ولعل أكثر ما يأخذ النظر فى ذلك هو تكرار الشعراء – غالبًا – لاسم المدينة فى قصائدهم وكأنهم يتغنون بها ، وإن لم يكن هذا التكرار متواليًا ، ومن ذلك ما فعل " محمود غنيم " فى قصيدته" بغداد "وفى بدايتها يقول (٣) :

بغدادُ قُرَّةُ عينِ الشرقِ بغْدادُ

لحنٌ تَغَنَّى به الإسْلامُ والضَّادُ

وكما كرر الشاعر اسم المدينة فى هذا البيت كرره مرات عديدة فى قصيدته حتى تجسد لنا استحواذها على فكره ورؤاه ومشاعره ، وهو تكرار يوحى بشدة تعلق قلب الشاعر بالمدينة ، فهو يتلذذ بذكرها ، ويشعر أن المتلقى يتلذذ بسماعها ، ولا

---

(١) ينظر : عن بناء القصيدة العربية الحديثة – د / على عشرى زايد ص ٥٨ .

(٢) قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ – طبعة دار العلم للملايين – بيروت .

(٣) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ / ٦٧١ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .

أدل على ذلك من قول الشاعر فى البيت العاشر من قصيدته [١] :

مَـــا كَاسْـــمِ بغـــدادَ فـــى الأفـــواهِ أُغْنِيَـــةٌ

ولا كأَمجَـــــادِكُمْ يـــــا قـــــومِ أَمْجَـــــادُ

فهـى المدينـة صـاحبة الحضـور الـدائم الـذى اسـتحوذ علـى فكـر الشـاعر ووجدانه ، فهو لا يكاد يترك التغنى باسمها إلا ويذكر تاريخها وأمجادها .

وقد كَثُر التكرار فى شعر " عبده بدوى " – فـى المدن العربيـة – حتـى ليعد ظـاهرة أسلوبية ، وقد أحسن الشـاعر اسـتغلاله ولـم يتكلـف فـى اسـتعماله، فـالتكرار عنده ليس نوعًا من الثرثرة أو مجرد حشو كلمات دون داع ، ومن أمثلة التكرار فـى شعر المدينة عنده قوله فى قصيدة " بغداد " [٢] :

وددتُ لـو أَنَّنِـى شـمسٌ علـى أفـقٍ

لكـى أُضِـيءَ الـدُّجَى ،والسَّـهْلَ ، والقَاعَـا

وددتُ لـو أَنَّنِـى شـعرٌ علـى وَتَـرٍ

كَيْمَـا أضـيفَ إلـى الإيقـاعِ .. إيقَاعَـا

وددتُ لـو أَنَّنِـى فـى الكـفِّ مروحـةٌ

تهز هدبك ، مـا اسْطاعتْ ومـا اسْطاعا

وددتُ لـــو أنَّ كـــلَّ النـــورِ أســـورةٌ

تحـــيط أرضـــكِ أهـــوارًا وأَصْـــقَاعَا

---

(١) القصيدة نفسها ص ٦٧١ .

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوى ٣ / ٢٦٦ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .

فالشاعر يكرر جملة " وددت لو أننى " أربع مرات فى بداية أربعة أبيات متوالية ، فهو كل مرة يقدم رغبة أو أمنية ثم يؤكدها برغبة أخرى مع تنويع الصورة فى كل مرة، مما يؤكد عمق رغبة الشاعر وكذلك حبه لبغداد ، كما أن التكرار قد أضفى على الأبيات توقيعًا ونمطًا صوتيًا يجسد الصدق الذى يكتنف ذات الشاعر بنطقها الجمل المكررة تأكيدًا لهذه الرغبة وهذه الأمنيات .

كما جاء التكرار كثيرًا فى شعر المدينة العربية لـ " أحمد عبد المعطى حجازى " ، ومنه قوله فى قصيدته " بغداد والموت " [١] :

من قاع حفرتِى رأيتُ الشمسَ كلَّ يوم

تأتى ، ولا ترحم نائماً سعيداً طىَّ حِلْم

تأتى ولو لم يَدْعُها كَفٌّ ، ولم يُصَلِّ فمْ

تأتى فكم طفلٍ مشى ، وكم طوى الثرى هَرِمْ

فهو يكرر الفعل " تأتى " فى بداية ثلاثة أبيات متوالية ، ولعل هذا التكرار يأتى ليعكس مشاعر اليقين لدى الشاعر بمجيء الشمس التى تأتى كل صباح غير عابئة بما حولها من متغيرات ، وقد أفاد التكرار لصورة مجيء الشمس تأكيدًا وحتمًا وبداهة قد لا تُستفاد بدونه ، كما أن التكرار هنا يعد تمثيلاً صوتيًا لهذا المجيء ، وداعمًا قويًا لرمزية الشمس الأمل المتجدد للمدينة التى تقاوم الموت .

(١) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٩٢ ، والقصيدة من شعر التفعيلة "مستفعلن " .

ب - النداء ودلالاته الفنية :

النداء هو أحد الأساليب الإنشائية التي يستطيع الشاعر من خلالها أن ينادي الشاعر مجموعة من الصفات المدائحية للمدينة مسبوقة بأداة النداء التى تدل على البعد " يا " ، مما يشعرنا بوصول المنادى إلى مكانة بعيدة فى فضاء الصفات المطروحة ، كما أنه يعكس رغبة ذات الشاعر فى أن يصل صوتها إلى أقصى غاية وأن يسمع الجميع نداءاتها التى تجسد رؤية الشاعر للمدينة .

وقد حفلت قصائد الشعراء عن بغداد بأسلوب النداء حتى عُدَّ ظاهرة أسلوبية ، ولعل أكثر ما يدل على ذلك تكرار النداء عند " علي الجارم " في قصيدته " بغداد " [١] وقد بدأها بالمنادى – مدينة بغداد – بدون أداة النداء ، الأمر الذى يوحى بالحميمية التى تتلاشى معها المسافات بين ذات الشاعر وبين عدة صفات مدائحية أراد تأكيد ثبوتها للمدينة بتكرار ندائها بحرف النداء " يا " عشر مرات فى قصيدته لتكمل صورة النداء التى تعكس رغبة الشاعر فى أن يسمع الجميع نداءاته وتؤكد رؤيته للمدينة ، وتبين جمالها وروعتها وعظمة تاريخها.

ويمكن القول إن النداء بهذه الصورة يعد أكثر صور النداء ورودًا فى شعر المدينة العربية ، حيث تكرر عند كثير من الشعراء مثل : " محمود حسن إسماعيل " فى قصيدته "بغداد" [٢]، و " زكى مبارك " فى قصيدته " من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد " [٣].

---

(١) ينظر : ديوان على الجارم ١ / ٣٣٧ .

(٢) ينظر : الأعمال الكاملة ص ١٣٢١ .

(٣) ينظر : كتابه " وحى بغداد " ص ١٢ .

جـ - الاستفهام ودلالاته الفنية :

ضمت قصائد الشعراء عن مدينة " بغداد " عديداً من أشكال الاستفهام التي أسهمت فى تكثيف التفاعل وتعميق التشارك العقلى والوجدانى بين النص وبين قارئه ، غير أنه تبقى مهمة الاستفهام الأولى هى كونه أداة تساعد الأديب فى إتمام الصورة والتعبير عن تجربته وانفعالاته .

ومما يدل لذلك ما جاء من استفهام في أسلوب " هاشم الرفاعى " فى قصيدته " شرق وغرب " ،وقد وصف فيها زحف العدو الغربي لاجتياح بغداد وترويع أهلها ، يقول [1] :

مـــا لِهـــذَا الغَـــرْبِ تـــوَّاق إِلَـــى
أَنْ يَرَانَـــا عالَمًـــا مكتَئِبَـــا ؟
قَـدْ مَضَـى نَحْـو الـرَّدَى لـم يكفِـه
مِـنْ وَرَاءِ الحـربِ مَـا قَـد خرَّبَـا
ســـائِلِ الأَنْقَـــاضَ مَـــنْ ذَا دكَّهَـــا
وأحَـالَ الصَّـرْحَ قَفْـراً مُرْعِبَـا ؟
مـــن أَخـــافَ الطِّفـــلَ فـــى رَقْدَتِـــهِ
فَبَكَـى فـى مَهْـدِهِ واضْـطَرَبَا ؟

(١) ديوان هاشم الرفاعى – تحقيق ودراسة : عبد الرحيم جامع الرفاعى ص ١٦٤ ، والقصيدة من بحر الرمل التام .

مـن بَغَـى بالنَّـارِ .. مَـنْ هَـذَا الَّـذِى

أَفْزَعَـتْ أهوالُـه قلـبَ الظِّبَـا ؟

مَـنْ مَضَـى فـى الجَـوِّ يَسْـرِى ركْبُـهُ

يُمْطِـرُ الأرضَ بليـلٍ شُـهُبَا ؟

فكفـــى العـــالَمَ مـــا قَـــدْ ذَاقَـــه

دَمُـــهُ مِـــن عِرْقِـــه قَـــدْ نَضُـــبَا

بدا أن الشاعر قد تعمد سوْق هذا الكم من الاستفهامات التقريرية المتوالية التى لا شك أنها استطاعت أن تتم الصورة لنرى من خلالها ذات الشاعر بحالتها النفسية والشعورية الحزينة والمتألمة .

وفى مقابل ذلك أيضًا أسهمت تلك الاستفهامات فى أن نرى صورة العدو – الغربى – وهو يعشق الزحف إلى المدن العربية بأسلحته ونيرانه وطائراته التى لا تترك المدينة إلا قفراً وخراباً وظلاماً كما أسهم الاستفهام فى وصف صورة أهل هذه المدن بين الخوف والفزع لاسيما صورة الطفل حين يستيقظ فَزَعاً بسبب هذا الاجتياح .

ولاشك أن الاستفهام قد كثف من درامية المشهد وعمَّق الإحساس به، مما قد يجعل من المتلقى شريكًا متفاعلاً يعانى ما يعانيه الشاعر ، ليقفا معًا معذبين مشدوهيْن لا يجدان جوابًا مقنعًا لهذه الأسئلة المتوالية ، وعلى ذلك يكون قد تحقق للنص مزايا الإقناع بالصورة وعمق التأثير .

ثانياً: الصورة الشعرية :

كانت الصورة وما زالت هي جوهر التعبير الجمالي وسر العبقرية الشعرية، وكما يقول النقاد : الشعر لايكون شعراً إلا بالصورة " فالصورة هى البنية المركزية للشعر ووسيلته وروحه ، وجوهره الثابت وجسده .. إن فى الصورة أكبر عون على تقدير الوحدة الشعرية أو على كشف المعانى العميقة التى ترمز إليها القصيدة " [١] .

وقد حفلت قصائد الشعراء عن بغداد بالصورة لاسيما التشبيهية ،ومن ذلك ماجاء من تشبيه ضمني عند " أحمد عبد المعطي حجازي " فى قصيدته " بغداد والموت " ، يقول [٢] :

الموتُ ليس أن تُوارى فى الثرى

ولا الحياةُ أن تسيرَ فوْقَهُ

الزرعُ يبدأُ الحياة فى الثرى

ويبدأُ الموتَ إذا ما شقَّهُ

فامنحْ هواك للذى يحيا

ففى البداية قصد الشاعر أن يقرر أمرًا شرعياً أن الحياة ليست فى أن يسير

---

(١) الصورة الفنية فى شعر الطائيين بين الانفعال والحس – د / وحيد صبحى كبابة ص ٩ – طبعة منشورات اتحاد الكتاب – دمشق ١٩٩٩ م .

(٢) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٩٢ ، والقصيدة من شعر التفعيلة "مستفعلن " .

الإنسان على الأرض وإنما أن يكون فعَّالاً فى حياته ، وليس الموت أن يُوارى فى التراب ، لأن الموت هو البداية الحقيقية للحياة الدائمة فى الآخرة ، ولأن الشاعر أورد ذلك فى صورة غريبة أراد أن يوضحها بمثال من الواقع هو أن الزرع يبدأ حياته فى الثرى جذورًا لا يراها الرائي ، فإذا ما ظهر فوق الأرض انتظر الناس موته يوم الحصاد .

أما التشبيه الضمنى فى هذه الصورة والذى نفهمه من سياق القصيدة أن الشاعر قدَّم هذه الصورة استدلالاً على أن الموت فى سبيل حرية الوطن هو عين الحياة ويشبه ذلك بالزرع الذى يبدأ الحياة بعد أن يدفن فى التراب ، ولاشك أنها صورة خفية تحتاج إلى معايشة القصيدة لاستنباطها .

وفي القصيدة نفسها اعتمد الشاعر كثيراً على الصور الاستعارية ، كما جاء في قوله [١]:

من قبل أن يموتَ كان ميِّتًا

يبكى ببغدادَ زمانًا ميِّتًا

يبحثُ عن حُجَّابِه ، عن شاعرِ

ببابه ما يُسْمِعُهُ .. أنت الفتى

بدأ الشاعر قصيدته بصورة الحاكم ووصفه بالميت رغم أنه حى ، لأنه لا فائدة للمدينة فى حياته ، فهو لا يهتم سوى بمجالس الشعر ومديح الشعراء له ، ثم

(١) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٨٩ ، والقصيدة من شعر التفعيلة "مستفعلن" .

يقابل الشاعر هذه الصورة بصورة الميت حقيقة لكنه ما يزال حياً فى النفوس، لأن موته كان فى سبيل حياة مدينته بغداد ، ويصور الشاعر روح الشهيد حية ترفرف فوق أراضى بغداد وتسأل عن موعد الثأر ممن قتلوه ، يقول الشاعر [١]:

إلا قتيلاً ، لم يمُتْ ، ولم يَزَل
يسألُ بغدادَ .. متى الثأرُ ، متَى ؟

ثم تتوالى بعد ذلك صور استعارية تحمل كل منها طاقات وإيحاءات غنية وتبنى على التجسيد ، ومنها قول الشاعر مصوراً بغداد [٢] :

ذبابةٌ فى الصيف ، يهزُّها تيارُ ريحْ
نهرٌ مضتْ عليه أعوامٌ طوالٌ لم يَفض
وأغنياتٌ مُحزنة
الحزنُ فيها راكدٌ ، لا ينتفضْ !

إنها صورة العجز والضآلة والجمود التى يرى عليها الشاعر المدينة ، وكذلك الجدب الروحى والقومى الذى عانته المدينة قبل الثورة ، ثم تأتى الصورة الاستعارية حين يخلع على الحزن صفات الحياة فيجسده حزنًا عاجزاً راكداً لا ينتفض ، وربما هو حزن ميت مثل جسد إنسان خلا من الروح .

ومن أهم صور الاستعارة فى القصيدة قول حجازى [٣] :

صدى خُطى أفسد وقْعَها الكلالْ

(١) القصيدة نفسها ص ٩٠ .
(٢) القصيدة نفسها ص ٩٠ .
(٣) القصيدة نفسها ص ٩١ .

القلبُ دقَّ

" والنسرُ حطَّ فى دمشق " !

فالنسر هو الرمز الاستعارى للرئيس جمال عبد الناصر ،الذى يراه حقق الوحدة بين مصر وسوريا ، وحرك الأمل فى نفوس العرب ، وعلى أثر هذه الوحدة العربية كان الشاعر يأمل فى وحدة كبرى بين كل البلدان العربية .

كما اهتم الشاعر "محمود غنيم " كثيراً في قصيدته " بغداد بالتصوير بطريق الاستعارة ومن أكثر مايدل لذلك تلك الأبيات التى استهل بها قصيدته " بغداد " ، يقول (١) :

بغدادُ قرةُ عين الشرقِ ، بغدادُ

لحنٌ تغنَّى به الإسلامُ والضادُ

الدهرُ يعرفها للكونِ عاصمةً

تقودهُ كيفما شاءتْ ، فينقادُ

إن تبتسمْ تُشرقِ الدنيا ، وإن

ففى السماوات إبراقٌ وإرعادُ

تُزهى الحواضرُ ما شاءَتْ

وكلُّها لكِ يا بغدادُ ، أولادُ

الغربُ يعرفُ ما أدَّى بَنُوكِ لهُ

الكُتْبُ تنطقُ ، والأقلامُ شهَّادُ

(١) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ / ٦٧١ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .

بنى محمود غنيم هذه الأبيات على عدة صور استعارية شخَّص فيها الجمادات ، وخلع عليها صفات الإنسان ، فقد شخَّصَ الإسلام والضاد – التى هى كناية عن اللغة العربية – وجعلهما يغنيان لحنًا عذبًا هو المدينة ، والدهر يعرف ويدرك ، وبغداد تقود الدهر وكأنه مطية سهلة الانقياد ، ثم هى تبتسم فتشرق الدنيا لابتسامتها ، وتغضب فتغضب لها ظواهر الكون ، والحواضر تزهى وتفخر ، والكتب تنطق وتتكلم ، والأقلام تشهد ، وكلها صور تتضافر لتبنى عالمًا شعريًّا يؤكد حقيقة واحدة هى ريادة المدينة وقوتها وعراقة حضارتها ، وأهميتها بين الحواضر العربية ، وغير خفى دور التشخيص فى بث الإحساس بهذه المعانى ، وعلى ذلك تكون هذه الصور وغيرها من الصور الاستعارية التى أوردناها نجحت فى أن تضعنا أمام صور حية نابضة أكثر قدرة على التعبير عن مراد الشعراء فى وصف المدينة .

كما حفلت قصائد الشعراء عن بغداد بالتصوير الكنائي ، ومن ذلك ماجاء في قصيدة "محمود غنيم " قوله [1] :

مدينـــــةٌ ، للنُّواســـــيِّينَ ركنهمُـــــو

فيهــا ، وللعلــم والآداب قُصَّــادُ

العيشُ فيها كَمَوْجِ البحر مصطخبٌ

فيــه تلاقتْ مـن الألـوانِ أضـدادُ

قدَّم الشاعر لفظ " النواسيين " نسبة وجمعاً لاسم الشاعر أبى نواس كناية عن الشعراء الماجنين واللاهين أحد التيارات الفكرية التى تزدحم بها المدينة ،

(١) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ / ٦٧٢ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .

ولاشك أن الكناية هنا أضفت على هذا التيار خاصة وضوحاً وبروزاً فى ذهن المتلقى ربما لم يحدث مع بقية التيارات .

ومن الشعراء الذين اهتموا أيضًا بصورة الكناية الشاعر " أحمد عبد المعطى حجازى " ، ومن ذلك ما جاء فى قصيدته " بغداد والموت " ، قوله فى أهل بغداد [1] :

وسبعةٌ من الرجال

جباههمْ مَجْرَى عَرَقْ

وجوههُمْ مُعتماتٌ لا تبوحْ

عيونهُم لا تستريحْ

تنفُذُ فى السرداب .. تعلو .. حيث بغدادٌ تنوح

تمشى على نقشٍ قديم فى الخشب

" عاش العربْ " !

يبدو أن الشاعر لم يجد له ملجأ إلى الوصف التقريرى المباشر فلجأ إلى صور الكناية التى تمثل لنا حال هؤلاء الرجال من أهل بغداد ، فجباههم مجرى عرق كناية عن أنهم يتحركون ويبحثون عن مخرج ينأى بالمدينة من الحالة المزرية التى هى عليها ، أما وجوههم فإنها معتمات حزنًا وأسًى على حال المدينة وربما لأنها تتكتم ما يعتمل فى داخل أصحابها ، فهى وجوه لا تبوح ، أما عيونهم فلا تستريح

(١) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٩١ ، والقصيدة من شعر التفعيلة "مستفعلن" .

كناية عن حركتها الدائمة وتقلبها فى كل الاتجاهات بحثًا عن مخرج لمدينتهم التى تصرخ وتنوح ، ثم هى تمر على نقش فى الخشب قديم يقول" عاش العرب "، تلك الكلمة التى تولِّد الأملوتُحرِّك الهمم ، وتُنهض الروح ، لترى بعد ذلك الصورة الخاصة الساكتة تدب فيها الروح ، ويبدأ الواقع فى معانقة الانفراجة .

وقد حفلت قصائد الشعراء عن بغداد بكثير من الصور البديعية ، مثل الطباق في قول محمود غنيم فى قصيدته" بغداد " [١] :

ما كان للشعر فى بدوٍ وحاضرةٍ

لولا رواتُكِ ، يا بغدادُ ، إنشادُ

فهناك طباق تضاد بين كلمتى " بدو " و " حاضرة " ، وهو طباق يعكس الشمول والعمومية التى أراد الشاعر أن يصور بها نفع مدينة بغداد وفائدتها للأمة فى مجال الشعر .

وكذلك المقابلة في قوله [٢] :

لِلَّهْوِ فيها حوانيتٌ وأنديةٌ

وللصلاةِ مَحاريبٌ وعُبَّادُ

وللثقافةِ تأليفٌ وترجمةٌ

وللغناءِ مزاميرٌ وأعوادُ

(١) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ / ٦٧٢ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .

(٢) الأعمال الكاملة – محمود غنيم ١ / ٦٧٢ ، والقصيدة من بحر البسيط التام .

يتحدث الشاعر عن مدينة " بغداد " مصورًا التقابل لما كان عليه حالها وما عُرفت به لاسيما بين الشعراء بأنها تجمع بين الأضداد ، وفى هذه الصور جمع الشاعر بين اللهو وما يناسبه من حوانيت وأندية ، وبين ما يقابله من الصلاة وما يناسبها من المحاريب والعباد .

وقد وضح من هذه الصورة أن الخطاب الشعرى لم يقتصر على مجرد عرض صور متقابلة وإنما عمد الشاعر إلى وضع هذه الصور فى إطار يجسد اتساع الهوة بين المتقابليْن ، وحق للشاعر ، فما أبعد الهوَّة بين الصلاة وما يناسبها ، وبين اللهو وما يناسبه مما ذكر الشاعر .

وقريب من هذه الصورة ما أورد الشاعر فى القصيدة نفسها من صورة متقابلة أخرى فى قوله [1] :

إن تبتسِمْ تشرقِ الدنيا ، وإن غضِبَتْ

فَفِى السماواتِ إبراقٌ وإرعادُ

فهو يقابل بين حال المدينة حين تصفو وتبتسم فتشرق لها الدنيا ، وحالها حين تغضب فتهتز لها السماء رعداً وبرقًا ، ولاشك أن المقابلة هنا تسهم فى إظهار الفارق الكبير بين الحالين ، حال رضا بغداد وحال غضبها ، وهو معنى مراد لدى الشاعر .

ثالثاً : البنية الإيقاعية والموسيقا:

فالموسيقى هى البساط الذى يحمل المتلقى الى أجواء العوالم الشعرية ،

(١) القصيدة نفسها ١ / ٦٧١ .

وهى تنقل إليه الحالة وتكثف من إحساسه بالفكرة وتقوى من تعايشه مع الصورة وتماسه مع الرؤية ، كما أنها جزء لا يمكن الحديث عن متعة للنص مع تجاهله .

وقد اتسعت قصائد الشعراء عن بغداد لتضم الشعر في شكله التقليدي وكذلك شعر التفعيلة ، وفي هذا العرض الموسيقي ندرس نموذجين لكل منهما .

أ – الشكل التقليدي للقصيدة .. قصيدة " بغداد " للشاعر الدكتور عبده بدوي :

جاءت هذه القصيدة على بحر البسيط وتفعيلاته : " مستفعلن – فاعلن – مستفعلن – فاعلن " فى كل شطر ، وبحر البسيط – كما هو معروف – يعد من أطول الأوزان مع بحر الطويل ، وهذا الطول يعد عنصرًا من عناصر البسط والهدوء ، وليس هذا الطول فقط هو باعث البطء والهدوء ، بل إن تركيب البحر من تفعيلتين مختلفتين منع تدفق الإيقاع ، ويعد هذا التركيب عنصرًا من عناصر الإيقاع الهادئ ، وإذا عرفنا أن الدكتور " عبده بدوى " نفسه يقول عن بحر البسيط " إنه بحر يتفق مع الشجن والتذكر والحنين ، ويعطى النموذج حالة من حالات الإنسيابية والسمو والصفاء " [1] ، فإذا عرفنا ذلك ندرك لماذا اختار الشاعر أو بمعنى أدق لماذا فرضت عليه التجربة الشعورية هذا البحر وهذا القالب التعبيرى الذى يجسدها ، يقول عبده بدوى فى بداية القصيدة [2] :

أكبـرْتُ فيـكِ مـنَ التـاريخِ مـا رَاعَـا

والمجْـدُ والشـعرُ .. إقـداماً وإبـدَاعَا

(١) دراسات فى النص الشعرى – د / عبده بدوى ص ٧٢ – ط الرفاعى – الرياض ١٩٨٤ م.
(٢) الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوى ٢ / ١٦٥ .

يـا جنـةَ الحُـبِّ قـد دارتْ علـى مَهْـلٍ

حديقـةً ، واستفاضَـتْ بَعْـدَ إشْـعَاعَا

ويـا قصـائدُ مـن شـعْرٍ إذا تُليَـتْ

تضـاعفَ البِشْـرُ والإمْتَـاعُ .. إمْتَاعَا

كلُّ الطيـورِ التـى فـى أُفْقِـكِ انطَلَقَـتْ

طَارَتْ ، وحَطَّتْ فَمدَّ الكونُ أَسْمَاعَا

وهـا أَنَـا – والـدُّنا خلْفـى تجـاذِبُنِى –

لا أَسْـتَطيعُ بهـذِى الأَرضِ إسْـراعَا

نسـيتُ نفسِـى – ففـى نفسِـى وفـى

أنِّـى بأرضِـكِ قـد أَيْنَعْـتُ إينَاعَـا

فالشاعر يصور لنا فى القصيدة مدى تعلقه ببغداد بما فيها ومن فيها ، ويبين لنا جمالها وروعة الأيام التى عاشها بين أهلها ، وكذلك أمنياته التى تسبح فى بحر من الخيال لبغداد وأهلها ، وغير ذلك من المعانى التى ضمتها القصيدة وتحتاج إلى إيقاع هادئ وممتد يعكس لنا هذه الصورة ، وهذا ما يتوافق مع بحر البسيط ، وقد وضح أيضًا أن الشاعر اختار حرف " العين " رويًا لقصيدته، لما له من وقع حسن على الأسماع ، وجعل العين مردوفة ، لما للردف من أهمية فى إبراز صورة القافية وإكسابها إيقاعًا وجمالاً [1] ، وربما كان ذلك سببًا فى أن نجد حرف العين مبثوثًا فى العديد من الأبيات بخلاف وجوده فى القافية .

(١) ينظر : البنية الإيقاعية فى شعر أحمد عبد المعطى حجازى – مرع سابق ص ٧٢ .

ب – الشكل الحديث (قصيدة التفعيلة) .. قصيدة " بغداد والموت " لأحمد عبد المعطي حجازي :

وقد جاءت هذه القصيدة على بحر الرجز وتفعيلاته " مستفعلن – مستفعلن – مستفعلن " ، وقد كان بحر الرجز فى شعر حجازى أوفى نصيباً من البحور الأخرى ، وذلك لما يتمتع به بحر الرجز من صفات جعلته أكثر طواعية للتجارب الشعرية المختلفة والانفعالات المتغيرة ، حيث استطاع الشاعر ترويضه واستخدامه فى أكثر قصائد شعره فى المدينة وفى غيرها "[١]

وفى هذه القصيدة أسهم بحر الرجز فى تجسيد حالة التوتر والصراع التى يعيشها الشاعر ، وكانت تفعيلاته بمثابة النبض الذى يعكس هذا التوتر ، كما أن السرعة الإيقاعية التى نشأت نتيجة الزخارف أسهمت فى تعميق هذا التجسيد[٢].

أما قافية القصيدة فهى متنوعة تحمل فى طياتها دلالات إيقاعية تكثف من دلالات الصورة وتعمق من الإحساس بها ، ففى المقطع الأول يقول الشاعر [٣] :

(١) ينظر : البنية الإيقاعية فى شعر أحمد عبد المعطى حجازى مرجع سابق ص ١١٨ .

(٢) فى مملكة الشعر – أحمد عبد المعطى حجازى ص ١٧٠ – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

(٣) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٨٩ .

من قبلِ أن يَمُوتَ كان ميِّتاً

يبكى ببغدادَ زَمَنًا ميِّتا

يبحثُ عن حُجَّابِه عن شاعِرٍ

بِبَابِهِ ، يُسْمِعُهُ .. أنتَ الفَتَى

فلا يرى إلا عيونًا من لَظَى

تَمْلأُ جوفَ القصرِ رُعْبًا صامِتاً

إلا قتيلاً ، لم يمُتْ ، ولم يزلْ

يَسْأَلُ بغدادَ .. متى الثأرُ ، مَتَى ؟

فالمشهد يعرض فيه الشاعر صورة الأمير الضعيف الميت معنوياً والذى يريد أن يحيا بين قصائد الشعراء المنافقين ، لكنه يفاجأ بالثورة ، وقد اختار الشاعر هنا " التاء " وهى صوت انفجارى " يحدث عند التقاء عضوى النطق التقاء محكماً يمنع الهواء من المرور ، ثم ينفصل العضوان بسرعة ينشأ عنها صوت قوى له دوى ... " [١] .

أما فى القطعة الثانية التى يصف فيها الشاعر مدينة " بغداد " وهى فى أسوأ حالاتها نجد القافية تتنوع وتختلف ، يقول حجازى [٢] :

---

(١) ينظر : أصوات اللغة العربية – د / عبد الغفار هلال – ص ١٥٩ – طبعة مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٩٥ م .

(٢) الأعمال الكاملة – الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى ص ٩٠ .

بغدادُ دربٌ صامتٌ ، وقُبةٌ على ضريحْ

ذبابةٌ فى الصَّيفِ ، لا يهزُّها تيَّارُ ريحْ

نهرٌ مضتْ عليه أعوامٌ طوالٌ لم يَفضْ

وأغنياتٌ مُحزنَهْ

الحزنُ فيها راكدٌ ، لا ينتفضْ !

وميّتٌ ، هَيْكَلَ إنسانٍ قديمْ

سيفٌ على صدرِ الجدارِ ، خِنجرٌ من النُّضَارْ

أرديةٌ ملوَّنهْ

غَطَّتْ ضلوعًا من هَشِيمْ !

وامرأةٌ تُغلقُ فى وجِه المساءِ بابَهَا

تَبكى على أخْشَابِه أحبابَهَا

فنجد الحاء الساكنة المردوفة بالياء والتى تسهم – بما لها من سمات – فى تجسيد حالة الإحساس بالحزن الحارق ، كما نجد أيضًا النون الموصولة بالهاء والميم الساكنة المردوفة بالياء ، والميم والنون هما أفضلما يمثل حالة الشجن الأليم الذى يسكن أعماق الروح ، كذلك نجد الباء الموصولة بالهاء التى يليها الخروج (حرف الألف) ، وهكذا يوالي الشاعر قصيدته مغيرًا القوافى ، وهو يختار فى كل مرة القافية التى تلائم الصورة الانفعالية التى يعانيها .

خاتمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

تؤكد هذه الدراسة على أثر المكان في درجة انفعال الشاعر ،وتقدم الحواضر العربية في الشعر الحديث موضوعاً جيداً متعدد الجوانب وغنياً بالإمكانات التعبيرية التى وعاها الشعراء لعوامل القومية ، ومازال الشعراء يكتبون عن الحواضر العربية دون جمود مما يدل على تجدد مادة الشعر مع تطور الزمن .

وفي مقدمة هذه الحواضر العربية تأتي " بغداد " التي تخْلُصُ هذه الدراسة إلى أن أكثر وجوه استدعاء الشعراء لتاريخها وبطولتها وما تعرضت له من نكبات كان استدعاء للصورة المثلى للمكانة القومية التي يحلمون ببعثها في تلك الحواضر.

كما تخلص هذه الدراسة إلى أنه على الرغم من ثقل الأجواء الحزينة التي أحاطت ببغداد في الشعر الحديث فإن أكثر القصائد تبدي تفاؤلا متصلاً بالتوجه القومي المشبع بالحس الثوري للشعراء الرافضين للتراجع المفروض على الواقع العربي ، ولعل من أسباب هذا التفاؤل أيضاً ما بدا لديهم من حس ديني يلزمه الإيمان ببشارات السماء التي تعد المؤمنين باستبدال العسر يسراً .

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباحث

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم (كتاب الله عز وجل)

أولاً : الكتب المطبوعة :

– أدب الغرباء – أبو الفرج الأصفهانى – تحقيق : صلاح الدين منجد – ط دار الكتاب الجديد – بيروت دون تاريخ .

– أصوات اللغة العربية – د / عبد الغفار هلال – ط مكتبة وهبة – القاهرة ١٩٩٥ م .

– الأعلام – خير الدين الرزكلى – ط دار العلم للملايين – الخامسة عشرة مايو ٢٠٠٢م.

– البنية الإيقاعية فى شعر أحمد عبد المعطى حجازى – محمود عبد الوهاب إسماعيل – ط مكتبة الآداب .

– تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – للمؤرخ شمس الدين الذهبى – ط دار الغد العربى – الأولى ١٩٩٦ م .

– تجربة المدينة فى الشعر العربى المعاصر– د / عبد السلام الشاذلى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ م .

– ثقافة الأسلاك الشائكة – فاروق شوشة – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة (القراءة للجميع ٢٠٠١ م) .

– دراسات فى النص الشعرى – د / عبده بدوى – ط دار الرفاعى – الرياض ١٩٨٤ م .

– دراسات نقدية فى شعرنا الحديث – د / على عشرى زايد – ط مكتبة ابن سينا ٢٠٠٢ م .

– سيرة حياة الدكتور زكى مبارك – إعداد كريمة زكى مبارك – ط مكتبة مصر ١٩٩٥ م .

– الشعر فى السودان – د / عبده بدوى – ط – عالم المعرفة – الكويت – ١٩٨١ م .

– الصورة الفنية فى شعر الطائيين بين الانفعال والحس – د / وحيد صبحى كبابة – ط منشورات اتحاد الكتاب – دمشق ١٩٩٩ م .

– عصر المأمون – أحمد فريد الرفاعى – ط دار الكتب المصرية – الرابعة ١٣٤٦ هـ – ١٩٢٨ م .

– عن بناء القصيدة العربية الحديثة – د / على عشرى زايد – ط مكتبة ابن سينا بالقاهرة – الرابعة ٢٠٠٢ م .

– فى مملكة الشعر – أحمد عبد المعطى حجازى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

– القاموس المحيط – الفيروز آبادى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – الثالثة ١٣٠١ هـ .

– قضايا الشعر المعاصر – نازك الملائكة – ط دار العلم للملايين – بيروت دون تاريخ .

– لسان العرب – محمد بن مكرم بن منظور – ط دار صادر – بيروت دون تاريخ .

– المدينة فى الشعر العربى– د / إبراهيم رمانى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧ م .

– المستدرك على الصحيحين – الحاكم النيسابورى – ط – دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

– مشكاة المصابيح – الخطيب التبريزى – تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى – ط – المكتب الإسلامى بيروت – الثالثة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .

– معجم الأدباء من العصر الجاهلى حتى سنة ٢٠٠٢ م – كامل سليمان الجبورى – ط دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٢ م .

– معجم البلدان – ياقوت الحموى – ط مطبعة السعادة بمصر – الأولى دون تاريخ .

– معجم تراجم الشعراء الكبير – د/ يحيى مراد – الجزء الأول – ط دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦ م .

– المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.

– موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة – جمع وإعداد / على ابن نايف الشعور – ط المكتبة الأكاديمية ٢٠٠١ م .

– وحى بغداد – د / زكى مبارك – ط المكتبة العصرية ببغداد – الأولى ١٩٣٨ م .

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – ابن خلكان – تحقيق : د / إحسان عباس – ط دار صادر – بيروت ١٩٧٨ م .

ثانياً : الدواوين والمجموعات الشعرية:

– الأعمال الشعرية الكاملة – د / عبده بدوى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

– الأعمال الشعرية الكاملة – محمد التهامى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م

– الأعمال الكاملة – أحمد عبد المعطى حجازى – ط دار سعاد الصباح ١٩٨٤ م .

– الأعمال الكاملة . محمود حسن إسماعيل – ط دار سعاد الصباح – الأولى ١٩٩٣ م .

– الأعمال الكاملة – محمود غنيم – ط دار الغد العربى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

– أنوار شعرية فى المسيرة الإسلامية – محمد التهامى – ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – عدد ١٥٧ – ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨م

– ديوان البحترى – شرح وتحقيق وتعليق : حسن كامل الصيرفى – ط دار المعارف – القاهرة ١٩٦٣ م .

– ديوان " ضيعت عمرى فى الرحيل " – عبد العزيز جويدة – ط مركز الغندور العلمى بالقاهرة – الأولى ١٩٩٣ م .

– ديوان على الجارم – ط الدار المصرية اللبنانية – الثانية – ١٩٩٠ م .

– ديوان نظيم – أبو الوفا رمزى نظيم – ط مطابع جريدة الصباح بالقاهرة

– ديوان هاشم الرفاعى – الأعمال الكاملة – تحقيق ودراسة : عبد الرحيم

جامع الرفاعى – ط مكتبة الإيمان بمصر – الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

ثالثاً الدوريات :

– مجلة " عالم الفكر " – العدد الأول – ط الكويت ١٩٨٤ م .